كتاب الهلال

د. رمسيس عوض

فلاديمير نابوكوف

حياته وأدبه 1899 - 1977



كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة

عبد القادر شهيب

رئيس التحرير

عادل عبد الصمد

المستشار الفني

محمد أبو طالب

المدير الفني

محمود الشيخ

مدير التحرير

أحمد شامخ

الإدارة

القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط). المكاتبات: ص.ب: ٦١ العتبة - القاهرة الرقم البريدي ١١٥١١ - تلغرافيا: المصور - القاهرة ج.م.ع

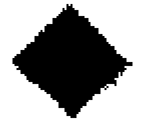
تلكس:

Telex: 92703 hilal u n

فاكس:

FAX : 3625469

الاصدار الاول / يونيو ١٩٥١



الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي ٧٢ جم داخل جمهورية مصر العربية تسدد مقدما نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٥ دولارا - اوروبا وآسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - امريكا وكندا والهند ٤٥ دولارا - باقي دول العالم ٧٥ دولارا.

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل لادارة الاشتراكات بخطاب مسجل كما يرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد

ثمن النسخة: سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٢٥٠ فلس - الكويت ١,٢٥٠ فلسا - السعودية ١٢ ريالا - البحرين ١,٢ دينار - قطر ١٢ ريالا - الإمارات ١٢ درهما - سلطنة عمان ١,٢ ريال - اليمن ٤٠٠ ريال - المغرب ٤٠ درهما - فلسطين ٢ دولار - سويسرا ٤ فرنكات - السودان ٣,٥ جنية

البريد الإلكتروني: darhilal @ idsc. gov. eg

من أدب الغرام والعشق

فلاديمير نابوكوف
حياته وأدبه
(١٨٩٩ - ١٩٧٧)

د. رمسيس عوض

الغلاف للفنان : محمد أبوطالب
مستشار التحرير: محمد رضوان

(١)

بالرغم من أن فلاديمير نابوكوف كان يتحدث اللغتين الإنجليزية والفرنسية وشيئًا من الألمانية إلى جانب اللغة الروسية الأم وأنه جرب العيش لفترات طويلة فى كل من ألمانيا وانجلترا وفرنسا وأمريكا وسويسرا، فإن الثقافة الروسية كانت دوما الغائرة فى عقله والهادية لخطاه. وكان جده يشغل وظيفة مرموقة فى عهد القيصر الكسندر الثانى الذى استمر فى الحكم من عام ١٨٦٨ حتى عام ١٨٨١ وبعد اغتيال هذا القيصر تقدمت روسيا بخطى واسعة على طريق التضبيع . ولكن خلفه القيصر الكسندر الثالث ذو الميول والاتجاهات الرجعية فقضى على كل أثر للفكر الليبرالى فى بلاده، مما أدى إلى طرد جد مؤلفنا من وظيفته المرموقة. وأيضا كان والد نابوكوف يتمتع بقسط وافر من الثقافة والتعليم، وأحد الأعضاء البارزين فى المجلس النيابى الروسى

المعروف باسم الدوما الذى تم إلغاؤه بعد نجاح الثورة البلشيفية عام ١٩١٧، وبعد وفاته عام ١٩٧٧ ترك مؤلفنا وصية اشترط فيها عدم نشر أوراقه الخاصة إلا بعد انقضاء خمسين عاما على وفاته الأمر الذى يفسر وجود بعض الجوانب الغامضة فى حياته، وبعيدا عن روسيا شعر مؤلفنا فلاديمير نابوكوف بالغصة فى هذا الفراق، ويمكن للمتتبع لحياته أن يتعرف على مصدر الكثير من الروائع الأدبية التى سطرها قلمه ويحدثنا نابوكوف كثيرا فى الفصل الثالث من كتابه: «تحدثى أيتها الذاكرة» عن والدة جدته التى تردد أسمها فى الصحافة الروسية عام ١٨٥٩ لأنها تشاجرت مع خياطة باريسية صنعت لبناتها فساتين تكشف عن نهودهن لحضور الحفلات. وقد تقدم لخطبة إحدى بناتها عشيقها ديمترى نابوكوف جد مؤلفنا . وقد أثار هذا الجد فضيحة عندما حاول إلقاء أحد الأشخاص من النافذة ويقول لنا فلاديمير نابوكوف إن نينا والدة جدته كانت رائعة الجمال حادة الطباع عارية عن الفضيلة رغم غضبها من الصدور المكشوفة التى صنعتها الخياطة الباريسية وهى تنحدر من عائلة شيشكوف التى تقطن منطقة سامارا.

كما كانت تتمتع بثراء واسع عريض فقد كانت تملك عند زواجها من البارون فردناند كورف الألمانى الأصل والروسى الجنسية ما لا يقل عن ٢٦ ألف هكتار من الأرض، ونذكر أن مؤلفنا أورد اسم عائلة أمه شيشكوف فى عدد من قصصه وقصائده التي تتضمن جانبا من سيرة حياته.

أشرنا إلى أن والدة جدته كان لها عشيق هو ديمترى نابوكوف الذى تزوج إحدى بناتها ولا أحد يعرف على وجه التحديد الظروف التى تم فيها هذا الزواج.

ويبدو أن القيصر الكسندر الثانى الذى اقترن اسمه بتحرير عبيد الأرض فى روسيا هو الذى أمر بزواج ماريا ابنة نينا من ديمترى نابوكوف وأن ديمترى قبل هذا الزواج حتى يسهل عليه الاتصال بعشيقته وحماته ويبدو أن علاقة نينا من الآثمة بزوج ابنتها جعلتها تعض بنان الندم فابتعدت عن المجتمع لتعيش فى عزلة فى ضيعتها. كانت ماريا فى نحو السابعة عشرة من عمرها عندما تزوجت من ديمترى الذى كان يكبرها بستة عشر عاما. ويبدو أن زواجه منها كان مفروضا عليه . ويعتبر ابن خال مؤلفنا الموسيقار نيكولا نابوكوف هو أول من تحدث عن هذه العلاقة الآثمة بصراحة

مما سبب حرجا شديدا لأفراد العائلة. وقد قام اثنان من عائلة نابوكوف بتأكيد هذه العلاقة بين ديمترى نابوكوف وحماته . ومن الواضح أن زوجة ديمترى نابوكوف كانت تحمل المقت والبغضاء لزوجها مما يلقى ظلالا من الشك على سلامة أبوة الأطفال الخمسة الذين أنجبتهم منه، ولاشك أن أدب نابوكوف الروائى تأثر بهذه الفضيحة العائلية لما يتجلى لنا من رواية «لوليتا» ومن شيوع الجنس المحرم بين ذوى القربى فى عموم أدبه. مثلما نجد فى روايته «أدا» وفى آخر رواية ألفها نابوكوف باللغة الروسية بعنوان «مولوس الملك» نراه يعالج نفس هذا الموضوع والجدير بالذكر أن جدته ماريا كان لها عشاق كثيرون وهناك إشاعات تقول إنها أنجبت أطفالا غير شرعيين من قيصر روسيا الكسندر الثانى الذى كان يأمر بإيقاف عربته على جانب الطريق لإفساح السكة أمام عربة ماريا نابوكوف كي تمر قبله .

وقد أنجبت ماريا ست عشرة مرة ولكن لم يبق من مواليدها على قيد الحياة سوى تسعة أطفال، قيل إن ثلاثة منهم كانوا أبناء غير شرعيين للقيصر الكسندر الثانى ومن بينهم والد مؤلفنا المولود فى عام ١٨٦٩ . ورغم استهزاء

مؤلفنا بهذه الإشاعة فإنه كان يشعر بدم بطرس الأكبر يجرى في عروقه. ومما أكد صحة هذه الشائعة أن اثنين من أبناء الزنا الثلاثة كان لهما ملامح عائلة رومانوف الحاكمة، غير أن البعض يتشكك في علاقة القيصر الكسندر الثانى بجدة مؤلفنا من ناحية الأم بدعوى أن هذا القيصر فى تلك الفترة كان متيماً بعشيقته كاتيا دولجورو وغارقا حتى أذنيه فى غرامها.

وسواء كان والد مؤلفنا ابن زنا أم لا وأن أباه هو القيصر الكسندر الثانى أم لا فإن جده ديمترى نابوكوف ربطته علاقة وثيقة بشقيق القيصر الدوق العظيم كونستانتين منذ عام ١٨٥٠ تقريبا، وذلك عندما التحق بخدمة وزارة البحرية الروسية وحين عين القيصر أخاه كونستانتين أدميرا لا للبحرية الروسية، وقام هذا الأخير باختيار والد مؤلفنا ديمترى نابوكوف مساعدا خاصا له واستمر ديمترى فى خدمة هذا الدوق العظيم لمدة تقرب من العشرين عاما.

وقد تميز هذا الدوق باعتناق الفكر الليبرالى والإصلاحى ويقال إنه هو الذى أقنع أخاه القيصر بتحرير عبيد الأرض. ويقال أيضا إن القوى الرجعية تآمرت على مساعده الخاص

ديمترى ونجحت فى إقصائه من منصبه المرموق فى البحرية الروسية بتهمة غرقه فى الديون بسبب حياة البذخ التى تحياها زوجته ماريا. ولكن أبناءه استطاعوا استعادة المركز المالى المرموق للعائلة عن طريق مصاهرة عائلات عريضة الثراء. ومن المعتقد أن شقيق القيصر كونستانتين وليس القيصر نفسه هو الذى كان على علاقة غير شرعية بجدة نابوكوف وأنه الأب الحقيقى لعدد من أطفالها .

اتسم ديمترى نابوكوف بقدر من التحرر الفكرى جعله يدخل عددا من الإصلاحات فى النظام القضائى ونظام المحلفين والقانون الجنائى فى منطقة البلطيق التابعة للامبراطورية الروسية. ورغم ما تعرض له اليهود فى روسيا من إبادة فإنه استطاع بحكم مركزه أن يثير موضوعا حساسا هو حقوق اليهود القانونية .

وقد سار والد مؤلفنا على درب جده ديمترى وتبنى نفس مبادئه الليبرالية والإصلاحية، دون أن يصل إلى نفس مركزه المرموق. ومع ذلك كان ف. د. نابوكوف والد مؤلفنا أحد زعماء حزب يمين الوسط المعروف باسم الكاديت وعضوا فى أول مجلس نيابى (الدوما) ويرجع الفضل إليه فى إنشاء

صحيفة «الأمة» للروس المهاجرين فى برلين فى فترة حكومة القرم المؤقتة واستمرت فى الصدور لمدة عقدين . ولم يستطع والد مؤلفنا وجده أن يتحملا فشل النظام القيصرى فى إدخال الإصلاحات الكفيلة بإنقاذه من الانهيار. ولهذا حمل مؤلفنا الاحتقار لعائلة رومانوف الحاكمة وثقافتها البالية وأسلوبها العتيق فى الحكم والحياة، ودفعه ضيقه بالنظام القيصرى الفاسد إلى أن يتوهم أن عائلته تنحدر من صلب أمير صغير الشأن فى حاشية جنكيز خان بل إنه ادعى أن نسبه يرجع إلى عائلة جنكيز خان نفسه، وتدل السجلات والوثائق أن اسم نابوكوف لم يكن له وجود أمام جنكيز خان فى القرن الثالث عشر، وأن هذا الاسم ظهر للمرة الأولى فى سجل يرجع تاريخه إلى القرن الخامس عشر .

انحدر مؤلفنا فلاديمير نابوكوف من عائلة عسكرية كان أفرادها من محافظى الأقاليم والأكاديميين وأصحاب الضيع المتوسطة الحجم. وكان أحد أفرادها مأمور قلعة بطرس وبولس التى سجن ديستيوفسكى فيها ولكن بسبب كثرة زيجاتها من أصحاب الثراء أصابت العائلة قدرا غير قليل من اليسار. ومؤلفنا وهو أحد المنشقين على النظام السوفييتى

هاجر إلى الولايات المتحدة وتقطعت صلته بموطنه، مما يفسر اهتمامه البالغ بتتبع جذوره العائلية. يقول الأمير الكسندر جاليتزين النبيل المحتد وقريب عائلة القيصر : «تزوج كثير من أفراد أسرتنا من أفراد عائلة نابوكوف الغنية غير أنهم لم يكونوا من حملة الألقاب»، كانت عائلة نابوكوف كريمة المحتد بكل تأكيد ولكنها ذات أهمية أقل، كان مؤلفنا مزهوا بأمجاد عائلته . ففى عام ١٩٤٥ نظم قصيدة باللغة الإنجليزية عنوانها «أمسية الشعر الروسى» جاء فيها «وفيما وراء البحار فقدت صولجانى» كان أديبنا يعنى ما يقول لأن جده ديمترى نابوكوف كان بالفعل يحمل صولجان القيصر فى حفل تتويج نيقولا الثانى عام١٨٩٤. ولاشك أن غربة مؤلفنا فى المهجر جعلته شديد الحساسية والحنين لعراقة أصوله العائلية . وليس معنى هذا أن مؤلفنا كان غافلا عن نرجسيته وصلفه ولكنه استطاع تحويل هذه النرجسية وذلك الصلف إلى أدب رفيع .

قلنا إن جد مؤلفنا ديمترى نابوكوف شارك فى إصلاح النظام القضائى فى عهد القيصر الكسندر الثانى الذى قيل إنه كلفه قبل وفاته بيوم بإعداد دستور جديد للبلاد، قيل إن

القيصر وقع عليه فى اليوم السابق على وفاته، ولكن رئيس الوزراء الرجعى بوبدو نستورى تعمد تجاهل هذا الدستور.

وقبل رحيله بعام أسدى القيصر الكسندر الثانى إلى جد مؤلفنا خدمة جليلة فقد خيره بين الإنعام عليه بلقب بارون وملكية دير قديم فى جنوب بولندا التابع لروسيا. وآثر ديمترى ملكية الدير على اللقب النبيل ويبدو أن هذا التخيير جاء نتيجة علم القيصر بحاجة ديمترى إلى المال لتسديد الديون المتراكمة عليه. وأيضا أمر القيصر بأيلولة هذا الدير إلى ابن ديمترى حتى لاتقوم أمه المسرفة ماريا ببيعه إرضاء لنزواتها.

وبعد أن اعتلى القيصر الكسندر الثالث أريكة الحكم أرسل إلى ديمترى خطابا أعفاه من منصبه الرفيع بوزارة العدل؛ بحجة أنه أراد لها المزيد من الاصلاحات غير أنه عبر عن أسفه لاتخاذ مثل هذا القرار الصعب لعلمه أن والده القيصر الراحل هو الذى اختاره بنفسه لشغل هذه الوظيفة. ويبدو أن رئيس الوزراء بوبدو توبستورى هو الذى أوعز إلى القيصر الجديد بالاستغناء عن خدماته، كما يرجع السبب الحقيقى فى عزله إلى أن ديمترى نوباكوف هو أول من حاول وضع اللجام على السلطة المطلقة للقيصر والجدير بالذكر أن

مؤلفنا صور هذا التخبط في سياسة قياصرة روسيا فى مسرحية نشرها عام ١٩٣٨ بعنوان «اختراع الفالس».

والجدير بالذكر أيضا أن جده ديمترى لم يظهر أدنى عطف أو شفقة مع الذين اغتالوا القيصر الكسندر الثانى عندما أسندت إليه مهمة محاكمتهم واعدامهم . وكانت إحدى المشتركات فى عملية الاغتيال امرأة حامل انتظر القضاء ولادتها قبل تنفيذ حكم الإعدام فيها .

وحتى ندرك بحبوحة العيش التى كان ديمترى نابوكوف يحياها نقول إن قصره فى مدينة بطرسبرج والمكون من ثلاثة طوابق كان يحتوى على كثير من الشقق الفسيحة المستقلة وصالونات الاستقبال والحفلات، وأن البيت الطويل العريض كان يضج بالخدم والحشم الذين يسهرون على راحة بناته وأبنائه، فضلا عن أن مقره الريفي فى باتوفا كان مكونا من خمسين غرفة .

ورغم أن القيصر الكسندر الثالث أعفى ديمترى من منصبه القضائى الرفيع فإن خلفه القيصر نيكولاس (نقولا) أعاد إليه اعتباره فى أخريات أيامه ومنحه مجموعة كبيرة من الميداليات والأوسمة رصع بعضها بالأحجار الكريمة. فضلا

عن أن القيصر الذى قام باستبعاده عين ابنتبه رائعتى الجمال اليسافيتا ونادزدا وصيفيتن فى البلاط، وفيما كان جميع أبناء وبنات ديمترى تقريبا ناجحين فى حياتهم الاجتماعية شذ منهم واحد اسمه فسفولد انقاد وراء مومس وتبعها حتى تخوم سيبريا. وهو النموذج الذى استقى منه ليو تولتستوى روايته المعروفة «البعث» وقد انقطعت أخبار هذا الابن الضال فجأة .. ورغم النجاح الاجتماعي الملحوظ الذى حققه السواد الأعظم من بنات وأبناء ديمترى فإن هذا لم يمنع من حدوث بعض أحداث الطلاق والزواج للمرة الثانية بين عمات وخالات مؤلفنا.

تزوجت نينا كبرى بنات الجد ديمترى من البارون فون ترويترج، وأنجبت منه ولدا يدعى يورى أصبح منذ نعومة أظفاره أعز صديق لمؤلفنا. غير أن نينا طلقت من زوجها البارون لتتزوج من كولومتسيف نائب أدميرال البحرية الروسية، الذى أبلى بلاء حسنا فى الحرب الروسية اليابانية عام ١٩٠٥ التى انتهت بانتصار اليابان وهزيمة روسيا. ثم تزوجت ناتاليا أختها من دبلوماسى روسى قضى عشرين عاما من عمره فى بلجيكا وهولندا ويدعى هذا الدبلوماسى

دى بيترسون عاشت معه ناتاليا فى تبات وبنات. وأيضا تزوجت فيرا ابنة ديمترى الثالثة من أحد أعيان الأقاليم. وتزوج ابن ديمترى الأكبر من امرأة فاحشة الثراء اسمها ليديا فالز - فين امتلكت عائلتها أراضى شاسعة وحيوانات ومواشى لاتحصى ولاتعد لدرجة أن الحكومة السوفيتية حولتها فيما بعد إلى محمية طبيعية. غير أن هذا الزواج انتهى بالطلاق. أما ابن ديمترى المدعو سترجى فقد منحته مدرسة القانون الامبراطورية ميدالية ذهبية وتقلد منصب محافظ على إقليمين. أما كونستانتين أصغر أبناء ديمترى فقد أضرب عن الزواج لأنه كما يقول مؤلفنا لايكترث بالنساء بسبب جنوحه إلى المثلية، وقد لمع اسم كونستانتين كدبلوماسى أمضى عدة سنوات في واشنطن. ويذكر أنه كان متيما بحب أمريكا التى عرفها من أقصاها إلى أدناها معرفة جيدة. فضلا عن أنه عمل فى السلك الدبلوماسى فى الهند التى ألف كتابا عنها واستقر في إنجلترا حتى وفاته بعد نشوب الثورة البلشيفية. وحتى نتبين مقدار نجاح مؤلفنا فى الحياة الاجتماعية نقول إن عمتيه الصغيرتين وهما اليسافتيا ونادزدا تزوجتا من زوجين لهما مكانة اجتماعية مرموقة فكان

زواج إليسافيتا الأول من الأمير هنريش ساين فنجشتين كما أن أختها نادزدا تزوجت فى عائلة ثرية نصفها من أصل بولندى ونصفها الآخر من أصل روسى .

إن عائلة مؤلفنا لها باع طويل فى أمور العشق والغرام فأبوه (واسمه فلاديمير نابوكوف أيضا) كان غارقا فى حب فتاة تدعى كاتيا إيجناتيف - ولكنها رفضت الزواج منه لأنها كانت تحب الدوق العظيم ميخائيل الأمر الذى اضطره إلى الزواج من فتاة شديدة الثراء تدعى إلينا روكا فيشينكوف تمتلك مناجم ذهب فى سيبريا. وكان زواجا سعيدا وموفقا وسواء كان والد مؤلفنا ينحدر من صلب أبيه ديمترى أم لا فإنه اكتسب نفس قدرته غير العادية على العمل المتواصل. وتفوق الابن على أبيه بقدرته على الخطابة والتأثير فى الناس. وقد ساهم هذا الابن فى سداد الديون المتراكمة على والده .

وفى آخر أيامه عبر ديمترى عن شديد استنكاره وسخطه على أولاده ولعل هذا يرجع إلى شكه فى حقيقة نسبهم إليه .

كان والد مؤلفنا ضليعا فى الشئون القانونية يهتم بصفة خاصة بالقانون الجنائى. ونظرا لعدم حاجته إلى المال انصرف إلى إجراء الأبحاث القانونية وإلقائها فى المؤتمرات

فى روسيا والخارج. وفى عام ١٩٠٤ نشر عددا من هذه الأبحاث بين دفتى كتاب. وكان واحدا من أشد المتحمسين لإلغاء عقوبة الإعدام كما أنه اقترح إدخال بعض التعديلات فى القوانين المتصلة بالشذوذ الجنسى . ولعل هذا يرجع إلى أن اثنين من أخوته وأخى زوجته كانوا يجنحون إلى الشذوذ الجنسى. فضلا عن أن سيرجى المضرب عن الزواج كان واضح الميل إليه وقد اعترض واحد من عائلة نابوكوف أن والد مؤلفنا كان يراقب تصرفات أبنائه عن كثب؛ خشية انحراف أحدهم إلى الشذوذ الجنسى. ويفسر لنا هذا اهتمام مؤلفنا بمعالجة هذا الموضوع فى كتاباته .

تخرج والد مؤلفنا فى جامعة بطرسبرج عام ١٨٩١ ثم سافر إلى ألمانيا لاستكمال دراسته . ثم تم تعيينه عام ١٨٩٥ فى البلاط القيصرى حيث حقق نجاحا ملحوظا بسبب براعته فى الرقص . وبعد ذلك عين مدرسا مساعدا للقانون الجنائى فى مدرسة الحقوق الإمبريالية وبات من الواضح أنه كان موهوبا ومؤهلا للعب دور هام فى رسم مستقبل روسيا. ولكن حاجته إلى المال كانت العقبة الكأداء أمامه ولهذا فكر أصدقاؤه المعجبون به بتزويجه من عائلة ثرية، وبالفعل تزوج

امرأة غنية جدا اسمها إلينا روكا فيشينكوف جعله ثراؤها يعيش فى بحبوحة ومهدا الطريق لانتخابه عضوا فى أول مجلس نيابى فى روسيا المعروف باسم الدوما، ويقال إن القيصر رشحه لتولى منصب وزارى ولكنه عدل عن الترشيح بسبب خطبة كان والد مؤلفنا قد ألقاها فى الدوما انتقد فيها الحكومة الروسية لأنها أطلقت النار فى يناير عام ١٩٠٥ على مظاهرة عمالية سلمية احتشدت أمام قصر ونتربالاس لتقديم التماس إلى القيصر لتحسين ظروفهم. وكانت هذه المظاهرة السلمية إحدى الشرارات التى أدت إلى اندلاع الثورة البلشفية عام ١٩١٧.

وعندما أمر القيصر بحل الدوما قام مؤلفنا بعبور الحدود الفنلندية بصحبة عدد من زملائه النواب وأصدروا احتجاجا وجهوه إلى الأمة، وغضب القيصر عليه فأمر بحبسه لمدة ثلاثة أشهر وحرمانه في المستقبل من عضوية الدوما. وفي السجن توفر والد مؤلفنا على الاطلاع ودراسة اللغة الايطالية وكتب خطابات إلى زوجته على ورق التواليت رشى الحارس لتهريبها. وفيما بعد انضم إلى الحزب الدستورى الديمقراطى (المعروف بحزب الكاديت) كما أسهم بقلمه فى الدفاع عن

حزمة من الإصلاحات القانونية والدستورية التى اعترض عليها القيصر نيكولاس .

وقبيل الثورة البلشفية انتشرت الإضرابات بين العمال فى روسيا القيصرية احتجاجا على الظلم والاجحاف لدرجة أنها بلغت فى عام ١٩١٥ نحو ألف إضراب فى العاصمة بطرسبرج وحدها، واستقر فى اعتقاد والد مؤلفنا بأنه كان بالإمكان تفادى الثورة لو أن الأمير ميشيل كانت لديه الشجاعة لقبول العرش بدلا من نيكولاس . ولم يكتف نابوكوف الأب بإغضاب القيصر منه بسبب احتجاجه على إراقة السلطات الروسية لدماء المتظاهرين فى عام ١٩٠٥ بل إنه ألقى خطابا آخر اعترض فيه على إبادة اليهود فى كيشنيف عام ١٩٠٣. ويعاب على نابوكوف الأب وزملائه فى الحزب الدستورى الديمقراطى أنهم اكتفوا بالكلام دون العمل، ولم يحاولوا ممارسة أى ضغط حقيقى على القيصر. وقد نشر نابوكوف الأب فى عام ١٩٠٩ مقالين طويلين فى مجلة «القانون» طالب فيها بإلغاء المبارزة وبسبب ثراء زوجته عاش هذا الرجل فى قصر بديع ورائع يقيم فيه الحفلات التى يحضرها علية القوم يشنف آذانهم أشهر الموسيقيين

والعازفين وحيث تزدان حوائطه بأروع الرسوم التى صورها الرسامون الروس والأوروبيون .

أما مؤلفنا واسمه بالكامل فلاديمير فلاديميروفتش نابوكوف فهو من مواليد إبريل ١٨٩٩. وقد أورد أحد زملاء والده فى مذكراته أول وصف لمؤلفنا فى طفولته. يقول هذا الزميل إنه رأى فى مكتب فلاديمير الأب صورة كبيرة لطفل رضيع يرتدى أقشب وأغلى الملابس راقدا فى عربة أطفال وقد انحنى عليه بحنو والده وأمه وخاله روكافيشينكوف وقد طفحت وجوههم بالانتشاء وبالبشر وتربى الطفل فى رعاية ممرضة ثم عهد به إلى رعاية مربية. ورغم حياة الرغد التى عاشها مؤلفنا منذ نعومة أظفاره فإن والده كان صارما فى تربيته وبينما الغلام يتعلم التزحلق على الجليد إذ به يشعر لأول مرة. بانتصاب قضيبه فسأل والده عن هذا الانتصاب فأجابه قائلا إنه شىء أشبه بحمرة الخجل التى تعترى الوجه ونصحه أن ينسى هذا بالتفكير فى شىء آخر.

وكان من عادة مؤلفنا أن يخاطب أباه بكلمة سيدى وظل يفعل هذا طول العمر. وعندما شب عن الطوق قام بتدريبه على تعلم اللغات والفنون وممارسة الرياضة مربون من

أصحاب الكفاءات العالية. فقد تعلم الفن مثلا على يد فنان معروف يدعى مستسلاف دوبوزنسكي . وتوثقت العلاقة بين مؤلفنا وهذا الفنان وتبادلا الخطابات حتى بعد هجرة نابوكوف من روسيا. وكان ارتباط أمه العاطفي به من نوع خاص فهي تحبه إلى حد العبادة وتمرض إذا انقطعت أخباره، باختصار كان مؤلفنا في طفولته يحظى بحب والديه الشديد على حساب إخوته وأخواته .

اتهم مؤلفنا أخته أولجا المولودة عام ١٩٠٣ بالنرجسية ولكنه لم ينكر جمالها الفاتن وصوتها الرخيم وموهبتها الموسيقية، ومن المفارقة أن النرجسية إحدى أبرز خصائصه غير الخافية على أحد .

في بطرسبرج قبل هجرته إلى الخارج قرأ مؤلفنا بعناية شديدة أعمال عالم الاجتماع المشهور هافيلوك إليس.

وتناول مؤلفنا موضوع النرجسية وجنونها عام ١٩٤٦ في قصة قصيرة نشرها بعنوان «إشارات ورموز» ورغم أن كتابات نابوكوف لاتتضمن سيرة حياته بشكل مباشر فإنها لاتخلو منها . ففي أحد خطاباته إلى أمه التي قرأت الرواية التي ألفها بعنوان «الدفاع» ذكر أن هذه الرواية مليئة

بذكرياته العائلية الخاصة، ولاشك أن وله أمه به وعبادتها له غذت فيه الثقة بالنفس من ناحية والمشاعر النرجسية من ناحية أخرى. تقول نينا أخته فى هذا الشأن : « كانت أمي تعبده من دون بقية أطفالها » وتأثر مؤلفنا باعتقاد أمه الراسخ بالأرواح والأمور الصوفية .

وهو يذهب فى كتابه «النار الباهتة» إلى أن القوى الكهربائية تتكون من أرواح الموتى. والقارئ لأعمال نابوكوف يجد فيها أمورا وأشياء تتجاوز الطبيعة وعالم المادة ، مثلما نرى فى «الانحناء الشرير» (١٩٤٧) و «دعوة إلى قطع الرأس» (١٩٣٥) و«أشياء شفافة» و «انظر إلى هادلكونيز» الأمر الذى يدل على أنه شارك بنى جلدته الروس إيمانهم العميق بعالم الروح شأنه في ذلك شأن مؤلف روسى آخر هو أندريه بلى.

(٢)

اعتادت عائلة نابوكوف أن تتحدث فيما بينها بثلاث لغات هى الإنجليزية والروسية والفرنسية ، وكان مؤلفنا يستفز مدرسيه بأن يقدم إليهم مقالاته المليئة بالعبارات الإنجليزية وفى أخريات حياته ألف نابوكوف مسرحيات لايفهمها أو يستسيغها سوى النظارة القادرين على فهم عدة لغات وهو الأمر الذى جعل جورج شتينر يقول إن تعدد اللغات هو المفتاح لفهم حياته وأدبه . غير أن مؤلفنا يؤكد أنه لايعبر عن نفسه عن طريق مختلف اللغات بقدر ما يعبر عن نفسه عن طريق استخدام الصور والأخيلة .

وقع مؤلفنا فى شبابه فى غرام الفتاة فالانتينا التى تمثل أول حب فى حياته، وعندما كان فى العاشرة من عمره حاول القيام بترجمة كتابات ماين ريد إلى اللغة الفرنسية. وقد عبر عن إعجابه ببعض أعمال الكاتب الأمريكى واشنطن إرفنج

ورغم أنه رافق والديه فى طفولته فى أسفار كثيرة إلى الخارج فإن ذكرياته «تحدثى أيتها الذاكرة» تدل على أنه لايذكر عنها سوى النزر اليسير وفى أعوام ١٩٠١ و ١٩٠٧ و ١٩٠٩ أخذاه معهما فى رحلة إلى بياريتز وفى عام ١٩٠٣ و ١٩٠٤ اصطحباه إلى الريفييرا . ولا يذكر كاتبنا عن هذه الأسفار غير التأثير السحرى للقطارات فيه . وأيضا كان بيت عائلته الصيفى الواقع بالقرب من بابوفو شيئا مهما ومحوريا فى حياته رغم أنه كان بيتا عتيقا لم تدخله الكهرباء. وفى هذا البيت الصيفى قضى الغلام معظم الوقت فى صحبة والديه اللذين كانا لايراهما فى بطرسبرج إلا لماما، كما أنه وجد متعة كبيرة فى اصطياد الفراشات وجمعها. تذكر مؤلفنا الممرات المؤدية إلى ذلك البيت والبحيرات والحقول ونهر الاريديز والجسر الخشبى الذى سار عليه راكبا الدراجة مع والده، وبلغ ولعه باصطياد الفراشات حدا جعله ينفق على مطاردتها نحو خمس ساعات من صباح كل يوم، كما أن هذا المكان أوحى إليه بنظم عدد من قصائده، ومن الواضح أن مؤلفنا نابوكوف أمضى طفولة سعيدة، وممازاد من ابتهاجه بقضاء فصل الصيف فى هذا البيت الريفى إقامة الاحتفالات

بمناسبة أعياد ميلاد عدد من إخوته وأخواته، وتصور رواية «أدا» هذا الجو المفرح البهيج، فلا غرو إذا وجدنا القصائد التى نظمها فى شبابه تفيض بعشق روسيا، وكشاعر شاب أعجب مؤلفنا بالشاعر المغمور أبوجين . ورغم فجاجة شعر مؤلفنا فى مقتبل شبابه فإنه اكتسب النضج فى قابل أيامه، ويصرح مؤلفنا بأن اللحظة التاريخية التى ولد فيها كان لها أبلغ الأثر فى إنتاجه الأدبى؛ فهى التى أوحت إليه بكل ما كتب .

أحب مؤلفنا بيته الصيفى أكثر مما أحب بطرسبرج التى ارتبطت فى ذهنه بالمدرسة والنظام الصارم وقسوة الشتاء، ورغم ذلك راقت له فى بطرسبرج روعة الكاتدرائيات السامقة والمراكب الكبيرة وهى تمخر عباب النهر وتخلى عن عشقه الذى اشتعل فى قلبه عام ١٩١٥، ولم يدم أكثر من عام قابل أديبنا فتاته لأول مرة عندما ذهب بصحبة معلمه لتبليغ أخيها أن عائلة نابوكوف تأذن له بناء على طلبه باستخدام مروجها كملعب لكرة القدم، وكانت فالانتيا عند مجيئه تجلس أعلى شجرة تفاح، وقد سجل مؤلفنا هذه المقابلة الأولى فى رواية «أدا» كما أن قصيدته القصيرة التى أهداها إلى الشاعر

فيودور جودونوف تصور هذا الحب الأول. وانزعج الأب حين علم بأمر هذا الحب من أحد خدمه الذى يقوم بالتجسس على ابنه. وما أن عرف الأب عن علاقة ابنه الجنسية بالفتاة حتى صاح فيه : «إذن فقد ملأت الفتاة» ويقول مؤلفنا فى ذكرياته «تحدثي أيتها الذكريات» إن أمه استنكرت مثل هذا التجسس الرخيص على ولدها، وتركت لابنها كوبا من اللبن كى يشربه عند عودته المتأخرة إلى المنزل. أما أبوه فقد ألقى على مسامعه محاضرة قصيرة عن واجبه فى عدم توريط أية فتاة، وكان غلامنا العاشق يباشر حبيبته فى ركن منعزل من المروج دون اتخاذ الاحتياطات اللازمة، وبعد انقضاء الصيف وعودته إلى بطرسبرج بدأ فى عام ١٩١٥ بالتغيب عن المدرسة.

نظم نابوكوف عددا من القصائد التى تناولت حبه لفلاتنيا وكان يستعد لإصدار ديوان عنها بعنوان «النوافذ المفتوحة» قبل هجرته من روسيا، ولكن هذا الديوان لم يقيض له الظهور، ولكنه ضمن بعض هذه القصائد فى ديوانيين نشرهما عام ١٩٢٣ فى برلين. وفى عام ١٩١٥ ورث مؤلفنا الشاب من خاله العليل فاسيلى (الذى كان أصدقاؤه يدعونه

روكا) ضيعة كبيرة. لكن القدر لم يشأ لمؤلفنا الاحتفاظ بهذه الضيعة بعد اندلاع الثورة البلشفية. وقد شعر نابوكوف بالندم لأنه كان لايزور خاله إلا لماماً، والغريب أن أخاه الأصغر سيرجى كان شديد الولع بخاله الذى لم يلتفت إليه أو يعره بالاً كان روكا يعيش فى رغد يفوق الرغد الذى عاشت فيه عائلة نابوكوف وقد أخذته أسفاره إلى أماكن بعيدة مثل الولايات المتحدة. شغل روكا فى حياته وظيفة ملحق فى السفارة الروسية فى روما حيث عاش فى فيلا تورلونيا الشهيرة التى صارت فيما بعد مقر إقامة موسولينى .

وقام النظام السوفييتى بتحويل البيت الفخم الذى ورثه مؤلفنا عن خاله إلى متحف يضم بعض مؤلفاته الشعرية. عبر روكا عن ولهه العظيم بابن أخته الوسيم فلاديمير وأفرط فى تدليله بشكل أحرج بقية أفراد العائلة. وكان الفلاحون العاملون فى ضيعته يسمونه «الذى يتجسس على الأرداف» وفى أيام دراسته فى جامعة كامبريدج التقى مؤلفنا بالامبراطور اليابانى هيروهيتو .

تحدثنا عن جنوح بعض أفراد عائلة أديبنا إلى المثلية فلا غرو إذا التقينا بعدد كبير من شواذ الجنس فى أعماله

الأدبية، وقد ضمت مكتبة أسرته كتاب العالم هافيلوك اليس عن المثلية الذى يحمل عنوان «الغريزة الجنسية ومظاهرها» ولم يكتف مؤلفنا بمطالعة هذا المرجع الهام بل طالع أيضا فى مكتبة العائلة عددا من الكتب التى تعالج الحالات النفسية المرضية وحتى ندرك كبر حجم هذه المكتبة نقول إنها شملت ما يقرب من عشرة آلاف مجلد ويديرها أمين مكتبة وتمت فهرستها عام ١٩٠٩، يقول مؤلفنا إن أباه اهتم باقتناء كتب الأدب الروسى القديم ولم ينل الأدباء الروس المحدثون كبير اهتمامه، والجدير بالذكر أن مؤلفنا قام فى عام ١٩٠٦ بطبع خمسمائة نسخة على نفقته الخاصة فى أول ديوان له. واعترض على نشره صديق لوالده الذى اعترف لصديقه بأنه لا حول له ولا قوة لأن ابنه الشاب ورث أموالا طائلة عن خاله. وقبل اندلاع الثورة البلشفية نشر مؤلفنا بعض قصائده فى المجلة الروسية الصادرة في يوليه ١٩١٦ بعنوان «التاريخ السنزيع» وأيضا فى مجلة «الفكر الروسى» الصادرة فى مارس عام ١٩١٧.. وقد احتفظ مؤلفنا فى مهجره بصورة كربونية من بعض هذه القصائد الباكرة.

امتلكت عائلة نابوكوف سيارتين فارهتين فى وقت عز فيه

امتلاك السيارات، إحداها مرسيدس بنز والأخرى رولز رويس سوداء وبسبب هاتين السيارتين عرف أديبنا فى شبابه بالتعالى، وسخر كاتبنا فى مذكراته من أن أحد مدرسيه فى مدرسة الأمير تنيشيف نصحه بالنزول من سيارته الفارهة قبيل وصوله إلى باب المدرسة حتى لايسىء إلى مشاعر أقرانه التلاميذ غير أن إحدى أخواته كانت تفعل هذا فتترجل من باب التواضع، فقد كانت تطلب من السائق إنزالها قبل الوصول إلى مبنى مدرستها. كانت مدرسة تنيشيف تتمتع بمستوى تعليمى رفيع ولم تكن هذه المدرسة تعرف التفرقة العرقية فهى على غير عادة المدارس الروسية لا تحدد عدد الطلبة اليهود المقبولين فيها بـ ٥٠٪ من مجموع طلبتها ويفضل هذه السماحة العرقية؛ كان نصف الطلبة فى فصل نابوكوف من اليهود الصرف أو اليهود المتحولين إلى الدين المسيحى. وقد سبق الشاعر اليهودى الكبير أوسيب ماندلستام مؤلفنا فى التخرج فى نفس هذه المدرسة ببضعة أعوام . وكان يدير مدرسة تنيشيف ناظر قوى اسمه الكسندر أو ستروجورسكى.

ومنذ عام ١٩٠٥ فصاعدا بات واضحا أن النظام

القيصرى يترنح وعمت فى أرجاء البلاد المظاهرات المطالبة بإقامة نظام جمهورى. قام القيصر نيكولاس بقمعها دون رحمة أو هوادة . وخرج طلبة الجامعات في مظاهرات احتجاج يؤازرهم طلبة المدارس الثانوية وعلى رأسها مدرسة تنيشيف التى أعلن طلبتها المحتجون إغلاقها حتى قيام نظام جمهورى، يكفل حرية الصحافة وحرية الاجتماع والعبادة . وحرص ناظر مدرسة تنيشيف ومدرسوها على معاملة طلبتها بالاحترام والتوقير وكانت المدرسة تسمح لطلبتها الكبار بالتدخين وقد تعلم مؤلفنا من والدته تدخين السجائر، فقد كان يدخن نحو ستين سيجارة روسية قصيرة يوميا، وكانت أقصى عقوبة تلحق بالطالب المدخن إبعاده عن المدرسة ليوم واحد .

وكانت مدرسة تنيشيف تصدر آنذاك مجلتين هما: «طالب مدرسة تنيشيف» و «الفارندا» وقد أسهم مؤلفنا أيام الدراسة بينشر مقالاته فى هذه المجلة الأخيرة.

كان لأديبنا فى فترة الدراسة صديقان عزيزان عليه هما صاموئيل روزوف الذى عرف بين أقرانه بتفوقه الدراسى وشجاعته المنقطعة النظير التى مكنته من مواجهة زميلهم

البلطجي بوبوف، الذي أدخل الرعب والفزع في قلوب أقرانه من الطلبة، ومن ناحيته اعترف كاتبنا أنه أثناء الدراسة لم يخش أحدا قدر خشيته من بوبوف الذي ظهر له في الأحلام المزعجة والكوابيس. أما صديقه الآخر الأثير إلى قلبه فكان مهرج الفصل سافلي كينائدز هنتسيف الذى قابله مؤلفنا في باريس في وقت لاحق . وقد غضبت عائلة سافلي من مؤلفنا لأنه نسي فضلها عليه ومساعدتها له أيام العوز في سنوات المهجر، فوصف سافلي في كتاباته بأنه شخصية كسولة ولكنها ساحرة.

تميز المنهج الدراسي في مدرسة تنيشيف بالمستوى الرفيع، وركز في مجال الدراسات الأدبية على الأدباء الكلاسيكيين القدامى أمثال درزهافين وفوتزيفين ورمسكونسكي وجريبودوف توطئة لدراسة بوشكين دراسة مستفيضة ومفصلة إلى جانب دراسة جيدة لجوجول وليرمنتوف ، ولكن المنهج الدراسي لم يتطرق إلى تورجينييف وتولستوى ودستيوفسكي غير أن هذا المنهج توفر على دراسة أندريه بلي دراسة مدققة ومتمعنة ، والذى لا شك فيه أن هذه الدراسة شكلت ذوق نابوكوف الأدبي بقية حياته

وباستثناء مؤلفنا أجمع الكل على أن أحسن مدرس فى مدرسة تنيشيف كان الشاعر فلاديمير جريبوس الذى لعب دورا رائدا فى إثارة الكراهية المفرطة له. يقول مؤلفنا أنه عانى كثيرا عندما طلب منه هذا المدرس الشاعر إلقاء مجموعة قصائده التى نظمها عام ١٩١٦ أمام الفصل، وكان من عادة جريبوس أن يدعو بعض طلبته إلى منزله ويعاملهم كأشخاص كبار وناضجين، ولاشك أن جريبوس كان أقوى شخصية تأثر بها التلاميذ فى مدرسة تنيشيف ، وقد شهد بقوة شخصيته الشاعر الكبير ماندلستام فى كتابه الهام «ضجيج الزمن كان نابوكوف أيام التلمذة كثير الاحتكاك والصدام مع جريبوس بسبب عدم رضاه عن مقال سطره تلميذه عن الأحداث السياسية التى وقعت فى فبراير ١٩١٦، عندما قامت حكومة الكسندر كرينسكى بالإطاحة بالنظام القيصرى عقب سلسلة من الاضطرابات فى بطرسبرج والأقاليم، والواقع أن جميع طلبة مدرسة تنيشيف انخرطوا فى العمل السياسى فى تلك الفترة الحاسمة فى تاريخ روسيا، باستثناء مؤلفنا نابوكوف الذى ترك أمر الاشتغال بالسياسة لوالده . وعلى أية حال كان مؤلفنا أيام التلمذة

يفضل على جريبوس مدرس التاريخ جورج جيربر، وإنها لمفارقة أن يعبر نابوكوف عن شدة إعجابه بمدرس التاريخ رغم أنه عجز عن أن يتذكر اسمه فى حياته اللاحقة . وفى مدرسة تنيشيف اشتهر اسم أديبنا بمهارته فى لعب كرة القدم حيث أتقن حراسة المرمى، وأيضا برز اسم أخيه سيرجى فى هذه اللعبة ، وأصبح من المؤكد أن يقع عليه الاختيار فى أية مباراة تقيمها مدرسته مع المدارس الأخرى .

وأيضا درجت مدرسة تنيشيف الرفيعة المستوى على دعوة عدد من كبار الشعراء الروس، أمثال ماندلستام وجوميلوف وكوداشسفتش (الذى أصبح أهم شاعر فى المهجر وواحدا من أفضل النقاد الذين تناولوا أدب نابوكوف) لإلقاء الشعر أمام الطلبة. غير أن نظرة مؤلفنا لهذه اللقاءات الشعرية كانت مليئة بالازدراء لأنه كان يعتبر أن شعره يفوق شعر جميع هؤلاء الشعراء الكبار، وكان نابوكوف لا يحترم من شعراء زمانه غير الشاعر الرمزى الروسى المعروف الكسندر بلوك، واستمر نابوكوف يحمل الاحترام لبلوك رغم انضمام بلوك إلى صفوف البلاشقة بعد اندلاع الثورة الشيوعية عام ١٩١٧ .

اعتاد طلبة مدرسة تنيشيف على توقير أساتذتهم حتى

عندما يرتكبون بعض الأخطاء، ولكن نابوكوف شذ عن هذا التقليد، فعندما أخطأ مدرس الجغرافيا فى كتابة نهر النيل على السبورة قام بتصويب هذا الخطأ مما جعل زملاءه يستنكرون فعلته، وينحون عليه باللائمة لأنه بفعلته هذا يقوم بإذلال مدرسه . وقد بلغ وله مؤلفنا بحراسة المرمى خاصة، وبكرة القدم عامة، مبلغا جعله يضمن رواياته تجاربه فى هذا المجال . وفى عام ١٩٣٧ أرسل نابوكوف إلى روزوف زميله فى المدرسة الأثير إلى قلبه خطابا مطولا يفيض بالحرارة . غير أن حرارة مشاعره فترت بمرور الأيام فأصبح أكثر قصدا وتحفظا فى التعبير عنها ، وفى عقد السبعينيات من القرن العشرين ذكرت زوجته أنه صار واضح التحفظ .

وكان من عادة مدرسة تنيشيف تنظيم رحلة كبيرة لطلبتها فى أوائل مايو من كل عام، ولكنها بسبب الحرب العالمية الأولى ومخاض الثورة، اكتفت المدرسة بإرسال مؤلفنا فى رحلة إلى فنلندا، ولكن هذه الرحلة لم ترق فى عينيه على الإطلاق. وأخذ نابوكوف معه إلى فنلندا شبكة اصطياد الفراشات، ورغم أن المشرف على هذه الرحلة كان مدرسا للأحياء فإنه رأى فى هواية نابوكوف لصيد الفراشات ضربا

من الشذوذ، وفى شتاء عام ١٩١٦ زار نابوكوف فنلندا للمرة الثانية بصحبة أمه . وهناك وقع فى غرام إيڤا التى تكبره بستة أعوام، ونظم فيها تسعا وثلاثين قصيدة، ولكن ضايقه أن يراها بصحبة رجل آخر، وبعد مضى ثلاثة أعوام التقى نابوكوف بهذه الفتاة مرة أخرى فى انجلترا حيث استأنف معاشرته لها. وبينما كان مؤلفنا وأمه يزوران فنلندا عام ١٩١٦ سافر والده إلى إنجلترا ضمن وفد أدبى رفيع المستوى يضم عددا من الشعراء والأدباء البارزين مثل الروائى ألكسى تولستوى والناقد كورنى تشوكوفسكى . وعندما أصدر مؤلفنا ديوانا فى شعر الشباب أهدى والده نسخة منه إلى تشوكوفسكى الذى افتقده افتقادا لاذعا رغم خطاب المديح المؤدب الذى سطره لشاعرنا الشاب .

قلنا إن والد شاعرنا الشاب زار إنجلترا ضمن وفد رفيع المستوى من الأدباء الروس. وهناك التقى الأب بويلز وكونان دوتل وروبرت دوس وإدموند جوس ، ودعت العائلة المالكة الإنجليزية هذا الوفد لزيارة قصر باكنجهام حيث حظوا بشرف اللقاء بملك انجلترا، وبعد عودة عائلة نابوكوف من فنلندا ولندن إلى روسيا وجدت أن النظام القيصرى قد أطيح

به ليحل محله النظام البلشفى .

بحلول عام ١٩١٦ قرر الطالب نابوكوف قطع دراسته فى روسيا لمدة عام يقضيه فى جمع الفراشات فى سيبريا، وذلك قبل التحاقه بجامعة كامبريدج بانجلترا، وصاحبه فى السفر إلى سيبريا أستاذ بارز فى علم الحشرات اسمه جروم جريزمايلو. وتتضمن روايته الروسية «الهدية» البالغة النضج إشارة إلى هذه المرحلة التى سافر بعدها إلى برلين ليتقدم بأوراق التحاقه بجامعة كامبريدج .

لم يكن لمدرسة تنيشيف أى زى مدرسى خاص بها، ولهذا بدأ مؤلفنا العايق وهو فى السابعة عشرة من عمره (وفى آخر عام دراسى) يرتدى ملابس الانجليز، الأمر الذى جعله يبدو وكأنه أحد أفراد عائلة القيصر وهو يهبط من سيارته الرولز رويس الفارهة ليدخل بوابة مدرسته، وعندما اندلعت الثورة البلشفية ١٩١٧ جلس نابوكوف غير مكترث يلعب الشطرنج مع زميله شمورلو بينما طلقات المدافع تصل إلى مسامعهما . واتصلت به أمه المنزعجة عليه لتطلب منه العودة إلى بيته إذا كان ذلك بإمكانه.

امتلأت شوارع بطرسبرج التى تحول اسمها إلى

بتروجراد، بالمتطلعين إلي نشوب الحرب البلشفية، وفى أثناء سير عمته فى الشارع لاحظت وجود حشد كبير من الناس يملأ ميدان هذه المدينة ليصغى إلى الزعيم لينين وهو يخطب فى الناس. فسألت عن هويته فأجاب أحد الواقفين قائلا : «إنه واحد منا» ، أما والد مؤلفنا فقد اعتبر لينين مصدر ضيق وإزعاج سوف يعتريه التعب من كثرة الكلام فينصرف إلى حال سبيله، والجدير بالذكر أنه عندما قامت الثورة البلشفية سمح نابوكوف الأب لعدد من الضباط الإنجليز وامرأة أمريكية وطفليها باللجوء إلى منزله والاحتماء فيه .

ثم أرسل ولديه سيرجى وفلاديمير إلى جنوب روسيا حتى يتحاشى تجنيدهما فى جيش البلاشفة ، وأيضا نزحت بقية عائلة نابوكوف إلى الجنوب طلبا للأمن والأمان مع عدد من المربيات .

وبطبيعة الحال عاشت أم مؤلفنا فى فقر مدقع عندما اضطرتها الثورة البلشفية إلى الهرب إلى براغ . لقد كان فى مقدور والد مؤلفنا تهريب جانب من ثروته تحسبا لاندلاع الثورة، ولكنه رفض أن يفعل ذلك بسبب حسه الوطنى، وعلى أية حال قامت عائلة نابوكوف بتهريب بعض القلادات

والخواتم والأساور القيمة إلى جانب بعض المجوهرات النفيسة ، وعند الهرب إلى الجنوب استقل مؤلفنا وأخوه سيرجي مقصورة خاصة بالقطار قاما بإغلاقها على نفسيهما طوال فترة الرحلة، الأمر الذى أثار غضب وفضول بعض العساكر المسافرين فقاموا بالصعود أعلى سطح عربة القطار وتبولوا عليهما من فتحة التهوية .

وصل مؤلفنا إلى منطقة القرم فوجدها صالحة لصيد الفراشات، ولكن دورية سوفييتية اعتقدت أنه جاسوس، الأمر الذى عرض حياته للخطر ، وقد ضمن مؤلفنا مغامراته فى منطقة القرم فى رواية «المجد» . وكذلك تضمنت روايتاه الأخريان «مارى» و«الهدية» جانبا من سيرة حياته. استطاع مؤلفنا في رحلة الصيد فى القرم أن يجمع ما لا يقل عن سبعة وسبعين نوعا من الفراشات، وأكثر من مائة نوع من الطحالب التى استفاد منها فى إعداد أول بحث علمى له نشره عام ١٩٢٣ فى مجلة إنجليزية تحمل عنوان «عالم الحشرات» .

كانت منطقة القرم نهبا موزعا بين البلاشفة وأنصار القيصر؛ فهى تقع فى يد الجيش الأحمر تارة والجيش

الأبيض تارة أخرى . وذات مرة داهم البلاشفة منزل عائلة نابوكوف ولكنهم تركوه اعتقادا منهم أنه طبيب، فضلا عن أن سائق العائلة الخاص كان من المنطقة فعرف كيف يتعامل مع هؤلاء الجنود ويصرفهم . والجدير بالذكر أن مؤلفنا حقق أول انتصار أدبى له فى فترة وجوده بالقرم عندما نجح فى ترجمة أغنية ألمانية كتب لها الذيوع والانتشار بين الروس، وعز على بعض أصدقاء والده أن يروا أديبنا يضيع وقته فى اصطياد الفراشات؛ فطلبوا إلى والده الضغط عليه كى يتخلى عن هواية جمع الفراشات، وينصرف إلى نظم الشعر ووجهه بعض معارفه المهتمين بالتصوف إلى قراءة عدد ضخم من الكتب الصوفية .

نشر نابوكوف مالا يقل عن ثلاث قصائد قصيرة فى صحيفة المهاجرين المعروفة باسم «صوت يالطا» الصادرة فى سبتمبر - أكتوبر ١٩١٨. كما كان فى تلك الفترة يقوم بترجمات من الشعر الإنجليزى والفرنسى. ويحدثنا نابوكوف عن شعوره بالألم للمضى فى مهجره الأول فى جنوب روسيا، وفى عام ١٩٢١ نظم قصيدة طويلة بعنوان «القرم» وصف فيها هذه المنطقة بأنها وردة أهداها إليه الله، وبالمكان الذى

وقف الشاعر بوشكين إلى جانبه مبتسما له . وأخيرا اندحر الجيش الأبيض المناصر للنظام القيصرى والمرابط فى جنوب روسيا أمام تعزيزات الجيش الأحمر الآتية من الشمال. وفى فترة وجوده في إيطاليا مثل نابوكوف دورا فى مسرحية «ليبيلى» التى ألفها آرثر سكينتزلر الذى ذاع صيته بين الروس، وتقاضى مؤلفنا أجرا عن تمثيله ، وقد سجل فى مذكراته «تحدثى أيتها الذاكرة» استمرار علاقته بفالينتينا عن طريق البريد، وراودته فكرة العودة إلى بتروجراد لإنقاذها من براثن الجيش الأحمر والنظام السوفييتى .

وفى يالطا تعرف نابوكوف على الشاعر ماكسيميليان فولوشين وتوثقت عرى الصداقة بينهما . والجدير بالذكر أن هذا الشاعر ارتبط اسمه بالمدرسة الرمزية، كما أنه قام بمبارزة الشاعر نيكولاى جوميليوف . وهو أول من ترجم هنرى دى ريجينير وبارى أوريفيلى، وعند قيام ثورة ١٩١٧ قبلها فولوشين على نحو صوفى وعلى أساس أخوة كل الشعب الروسى .

تعرف والد مؤلفنا على عدد من الأدباء بحكم عمله فى صندوق بطرسبرج الأدبى، ففى إحدى زياراته إلى بطرسبرج

توقف لتبادل الحديث مع ليوتولستوى على جانب الطريق بينما أخذ هذا الأديب الروسي العظيم يعبث بشعر مؤلفنا الذى كان فى التاسعة من عمره . وفى اجتماع عقده الصندوق الأدبى التقى والده بالشاعرة المعروفة زينايدا جريبيوس فاستطلع رأيها فى ديوان الشعر الذى نظمه ابنه ونشره على نفقته الخاصة، فإذا بها تعلق قائلة إن صاحب الديوان لن يصبح شاعرا أبدا. وأيضا كان والد مؤلفنا على علاقة طيبة للغاية بنيكولاى منسكى أول شاعر يهودى مهم فى الأدب الروسى .

أظهر الشاعر فولوشين المعروف بطيبته الشديدة اهتماما واضحا بأديبنا الشاب. وفى حياة مؤلفنا اللاحقة نراه يعبر عن ندمه الشديد لأنه لم يذكر سوى النزر اليسير عن مقابلاته الكثيرة مع فولوشين فى مقهى نتار يالطا حيث كانا يحتسيان الخمر ويتناقشان حول الشعر. وزار مؤلفنا بيت فولوشين المتواضع فى منطقة القرم والمطل على شاطئ البحر. وفى عام ١٩١٩ قرر فولوشين البقاء فى روسيا ومكابدة الحياة القاسية فيها على الهجرة منها. وعندما علم أديبنا بوفاة صديقه ومعلمه فولوشين عام ١٩٣٢، كتب إلى والدته يقول إنه

يدين بالفضل له فى تعلم القريظ ونظريات الأديب الرمزى أندريه بلى فى الشعر. وفى مذكرات علم العروض التى سطرها نابوكوف كملحق لدراسته المستفيضة عن روايات بوشكين «أيوجين أونيجين» .

يعترف نابوكوف صراحة بأثر الشاعر أندريه بلى فيه. وفى فترة إقامته في منطقة القرم عانى مؤلفنا فى مايو عام ١٩١٨ من وجع شديد فى الأسنان لازمه طيلة حياته. وفى تلك الفترة أصيب بصدمة عنيفة عندما توفى يورى صديقه وابن عمه الذى ألف قصيدتين عام ١٩١٩ فى تقريظه.

فكر مؤلفنا فى الانضمام إلى صفوف الجيش الأبيض الموالى للقيصر ولكن والده رفض لأنه رأى حكومة القيصر تتهاوى ، ولذلك اقترح على عائلته مغادرة روسيا . ويبدو أن تقاعس مؤلفنا وهو فى التاسعة عشرة من عمره عن الاشتراك فى القتال أثار حوله نوعا من اللغط . ففى غام ١٩٧٩ نشرت الأميرة زينايدا سشاكوفسكوى كتاباً عن المهاجرين الروس إبان الثورة البلشفية، تساءلت فيه عن سر امتناع مؤلفنا عن خوض غمار الحرب بين الجيشين الأبيض والأحمر . على أية حال قرر جميع وزراء القرم ومن بينهم عائلة نابوكوف -

مغادرة الأراضي الروسية على ظهر سفينة تحمل اسم «ترايينروند» ولكن المسئولين الفرنسيين فى إدارة هذه السفينة أنزلوا جميع ركابها فى آخر لحظة؛ خشية أن يكون أحد هؤلاء الوزراء قد هرب أموال الدولة معه. ولكن يبدو أن وزراء حكومة القرم المؤقتة كانوا فوق مستوى الشبهات لأن المسئولين عن إجلائهم سمحوا لهم بركوب السفن الأخرى المعدة لهم. وشملت قافلة الإجلاء مائة وست وعشرين سفينة أقلت ١٤٥٦٠٣ شخصا إلى القسطنطينية . ويصف مؤلفنا انشغاله فى لعب الشطرنج مع والده على ظهر السفينة التى أقلتهما وإطلاق القوات البلشفية عددا من القذائف على السفن الأخرى المتأهبة لإجلاء المهاجرين الروس . وعندما رأى قبطان «الأمل» التى أقلت عائلة نابوكوف أن بعض الشظايا قد طالت سفينته قرر الإبحار والبعد عن الميناء فورا. ووصلت هذه السفينة عبر البحر الأسود إلى القسطنطينية حيث توقفت لمدة أربعة أيام لم يسمح للمهاجرين بمغادرتها . وتتضمن روايته «المجد» الطريق الذى سلكته سفينته «الأمل» فى رحلتها . وقد أعطتنا أخته إلينا وصفا مفصلا لهذه السفينة، قالت إن القمل انتشر فيها وأنها اضطرت إلى النوم

على باب مخلوع وأن الركاب كانوا يأكلون البسكويت الذى يعطى للكلاب . وعلى ظهر هذه السفينة انصرف نابوكوف إلى نظم الشعر. وعندما رست السفينة فى أثينا أمضت عائلة نابوكوف بضعة أسابيع فى فندق متواضع فى مرفأ هذه المدينة، وبوجه عام لم تترك اليونان أثرا عميقا فى نفس مؤلفنا ، وهناك نظم مؤلفنا قصيدة طويلة بعنوان «حلم فى الأكروبول» عن ذكرياته الجميلة عن روسيا بينما هو يستمع إلى شرح المرشد السياحى عن آثار الأكروبول. وفى رحلة الهجرة من روسيا إلى اليونان تعرف مؤلفنا على ثلاث فتيات اسم إحداهن نوفوتور شكايا التى طواها النسيان ، ولكننا نعرف من روايته «المجد» الكثير عن علاقته العاطفية بالشاعرة «ألا» التى كانت تكبره فى السن . وأيضا تعرف نابوكوف على فتاة ثالثة فى اليونان تدعى نادزدا جورودو فسكايا يبدو أن علاقته بها استمرت عندما سافر إلى انجلترا . وكذلك تعرف أديبنا فى اليونان على أختى المؤرخ الأدبى الشهير الأمير الشيوعى د.س. ميرسكى الذى تناوله الأديب الإنجليزى إدموند ويلسون فى كتاباته . وبعد هجرته قرر ميرسكى العودة إلى روسيا بلاده، ولكن السلطات السوفيتية

زجت به فى أحد معسكرات الاعتقال حيث قضى نحبه، والجدير بالذكر أن شخصية هذا الأرستقراطى الشيوعى لم ترق فى عينى مؤلفنا الذى وصفه بأنه قرين لينين من الناحية الجسمانية .

استقبلت اليونان عددا كبيرا من الروس الفارين من حكم البلاشفة . فضلا من وجود جالية روسية كبيرة هناك أنشأت لنفسها كنيسة ومدرسة ومستشفى خاصا. كما أن ابن عم مؤلفنا سيرجى كان يشغل وظيفة مسئول الإغاثة فى اليونان التابعة للصليب الأحمر . ثم سافرت عائلة نابوكوف إلى برلين عن طريق الأراضى الفرنسية، حيث مروا بالعاصمة باريس مرور الكرام، وأوحت إليه باريس بنظم قصيدة تناولت شبابه. ويشاء القدر أن تتأخر هجرته إلى الولايات المتحدة واحدا وعشرين عاما؛ لأن عائلته التى استقلت الباخرة «بانوميا» المتجهة إلى نيويورك آثرت النزول فى مارسيليا، ثم استقلت القطار المتجه إلى باريس لتبقى فيها وقتا قصيرا قبل استئناف رحلتها إلى لندن .

وفى بلاد المهجر فكر الروس المهاجرون فى إقامة جيش لغزو روسيا من ناحية الجنوب للإطاحة بالنظام البلشفى .

ولكن أديبنا رفض الاشتراك فى هذا المخطط غير أن زوجى أختيه الأوليين أصبحا ضابطين فى هذه الحملة . وقررت عائلة نابوكوف إلحاق ولديها سيرجى وفلاديمير بإحدى الجامعات الإنجليزية . وتسجل رواية «المجد» هذه الفترة من حياته .

وفى صيف عام ١٩١٩ أمضت عائلة نابوكوف بضعة شهور في لندن، من أجل اتخاذ الإجراءات اللازمة لالتحاق ولديها سيرجى وفلاديمير بالجامعات البريطانية، وفى لندن تقابل مؤلفنا مصادفة بحبيبته إيفا فاستأنف علاقته بها . وهناك أيضا قابل روزوف وتلا عليه قصائده الجديدة، كما أمضى الوقت فى لعب البلياردو معه. كان روزوف قد التحق بجامعة لندن الأمر الذى مكنه من مساعدة نابوكوف فى دراسته . ولسوء حظ نابوكوف لم يأخذ معه إلى انجلترا أية أوراق أو مستندات خاصة بتعليمه فى مدرسة تنيشيف . ولهذا كان لزاما عليه اجتياز بعض الامتحانات التى تؤهله للالتحاق بجامعة كامبريدج .

وقام روزوف زورا بإعطائه مستنداته، ويبدو أن مكتب القبول فى جامعة كامبريدج لم يفقه حرفا من هذه المستندات

المكتوبة باللغة الروسية، فظن خطأ أنها مستندات مؤلفنا ووافق على التحاقه بكلية ترينيتى، وذكر نابوكوف فى استمارة الالتحاق أن أباه كان عضوا فى مجلس الشيوخ. أما أخوه سيرجى فقد التحق بجامعة أكسفورد غير أنه اصطدم ببعض العقبات فاضطر إلى تحويل أوراقه إلى جامعة كامبريدج . تخرج مؤلفنا فى جامعة كامبريدج بمرتبة الشرف الأولى فى اللغتين الفرنسية والروسية عام ١٩٢٢، ومرتبة الشرف الثانية فى مادتى الأدب والتاريخ . ولم يشعر بالسعادة فى فترة الدراسة بجامعة كامبريدج؛ فقد تذكر وطنه وكل الأشياء التى فقدها. أما أخوه سيرجى فكان فى منتهى السعادة هناك. وعلى أية حال جمعت جامعة كامبريدج شمل الأخوين وأمضيا سويا بعض الوقت فى لعبة التنس بعد أن كانا لا يرى أحدهما الآخر فى روسيا إلا لماماً. ولم يحصل مؤلفنا على منحة دراسية من جامعة كامبريدج، ولكنه حصل على منحة من إحدى منظمات المهاجرين فى برلين التى كان لوالده نفوذ فيها .

وفى بداية دراسته الجامعية درس أديبنا علم الأسماك ولكنه ما لبث أن نبذه لأنه استهلك كل وقته وصرفه عن نظم

الشعر الأثير إلي قلبه ، ومن الجائز أن حبه لصديقه لبيريس المفتون بدراسة الأسماك هو الذى أغراه بدراستها ، وتدل مذكراته «تحدثى أيتها الذاكرة» على أنه ندم لأنه بخس روسيا ولم يقدرها حق قدرها، إنه مهما بلغ حبه لإنجلترا فإنه يأتى فى المرتبة الثانية لحبه لروسيا. ويلقى مقاله - بعنوان «كامبريدج» المنشور فى أكتوبر ١٩٢١ فى صحيفة المهاجرين التى أسسها والده فى برلين - الضوء على موقفه من انجلترا فهى فى نظره مرتبة ومنظمة ومصطنعة أكثر من اللازم، كما أن عواطف الانجليز فاترة بالمقارنة بعواطف الروس. فهم لا يعرفون المشاعر الجارفة والكاسحة التى يعرفها الروس .. تلك المشاعر التى جعلت أمه تركع لتقبل التراب فى كل يوم صيف زارت فيه أرض منتجعهم فى فيرا، وتحدثنا روايته «المجد» عن الحائط الزجاجى الذى يفصل الإنجليز عن الروس.

ونحو عام ١٩٢١ حث والد مؤلفنا ابنه على التخرج فى جامعة كامبرديدج غير أن مؤلفنا صرح لنا فى مذكراته أنه لم يبذل جهدا كبيرا للتخرج فى هذه الجامعة . ولا غرو فقد أتقن اللغتين الروسية والفرنسية منذ نعومة أظفاره، كما أن

مستوى التعليم الجيد فى مدرسة تنيشيف ضمن له التفوق في هاتين اللغتين دون الحاجة إلى بذل أى جهد . ويفخر مؤلفنا بأنه لم يدخل مكتبة الجامعة أبدا . ولكنه واظب على حضور المحاضرات وتدوينها وكان هذا كافيا لاجتياز امتحاناته. وفى جامعة كامبريدج تلقى العلم على يدى الكسندر جودى أستاذ الدراسات السلافية الذى صوره فى رواية «المجد» . ويبدو أن جودى لم يترك أثرا عميقا فى نفسه مثل الأثر الذى تركه إرنست هاريسون فيه رغم أن هاريسون كان يستدعيه كثيرا إلى مكتبه لتقريعه على سوء مسلكه .

وفى خطاب كتبه مؤلفنا إلي أمه فى أوائل ١٩٢٠ نراه يصف هاريسون بأنه رجل شرير وغبى بشكل غير عادى، رغم شهرته الواسعة كأستاذ للأدب الكلاسيكى . وبسبب مقالبه ومزاحه أصدرت كلية ترينتى أمرا بطرده ولكن هاريسون كان له الفضل فى عدول هذه الكلية عن طرده . وفى كامبريدج شاركه السكن فى حجرته زميل روسى متقلب المزاج اسمه كلاشينكوف . واشترك الاثنان مع زميل ثالث هو الأمير نيكيتا رومانوف فى الإتيان بأعمال مزاح ثقيل ومقالب مزعجة، لدرجة جعلت المستر هاريسون يستدعيه بصفة دائمة.

والجدير بالذكر أن زميله كلاشينكوف عرفه بفتاة تدعى سفيتلانا زيفرت استهوته فخطبها وكاد يتزوج منها عام ١٩٢٣ ، وبعد هجرة مؤلفنا إلى أمريكا تصادف فى الخمسينات من القرن العشرين أن قابل هذا الزميل القديم فى الشارع الخامس (فيفث أفنيو) فى مدينة نيويورك فاتضح لكاتبنا أنه يعمل فى بورصة الأوراق المالية . وبدا له هذا الصديق القديم فى بزته الفضية الخضراء وكأنه زعيم عصابة أو قاطع طريق.

ويسبب عدم انكباب نابوكوف على الدراسة فى كامبريدج توفر له كثير من الوقت لإقامة العلاقات الاجتماعية التى شغلت كل وقته. وكثيرا ما سافر إلى لندن لحضور الحفلات ولقاء الفتيات . وهناك وقع فى غرام جرسونة رائعة الحسن والجمال، وقد اعترف مؤلفنا بأنه منذ أن ورث ضيعة خاله روكا وامتلأت جيوبه بالأصفر الرنان الذى أتاح له ارتياد أفخم مطاعم بطرسبرج، تمكن من الاحتفاظ بثلاث أو أربع عشيقات فى وقت واحد، ورغم أن جيبه فى كامبريدج كان خاوى الوفاض فإنه كان له عدد من العشيقات . وكان يذهب إلى لندن للتزحلق على الجليد مع فتاة تدعى نينا تشفر

شيفادز التي قابلها في أمريكا بعد مرور عشرات الأعوام.

ارتبط مؤلفنا في كامبريدج بعلاقات غرامية مع ثلاث نساء إحداهن أرملة فنلندية متقدمة في العمر اسمها مرجريت فانسي نام مات زوجها في الحرب، غير أن مؤلفنا في أيامه اللاحقة نسي اسمي عشيقتيه الأخريين التي ترجع علاقته بهما إلى الأيام السابقة على نشوب الثورة البلشفية . وقد احترقت إحداهما واسمها ماريانا شريير راقصة الباليه . ولكن ما أن عرفت هذه الفتاة بعلاقاته الغرامية مع نساء أخريات حتى قطعت علاقتها به فجأة ودون سابق مقدمات . والجدير بالذكر أن نابوكوف عرض عليها الزواج، ولكنها رفضت لأنها كانت تبغي الزواج من رجل واسع الثراء . وكذلك أحب مؤلفنا في لندن تلك المرأة الفنلندية التي سبق أن قابلها في عام ١٩١٦ ، وهي فتاة يهودية من بولندا. وأيضا عرض عليها الزواج ولكنها رفضت دون أن تقطع علاقتها الجنسية به . وكانت علاقة مؤلفنا بشقيق هذه الفتاة ودية للغاية.

وتدل مذكراته «تحدثي أيتها الذاكرة» على أن أقرب الأصدقاء إلى قلبه آنذاك كانوا خمسة روس مهاجرين هم

بيتر مروسوفسكى وبوبى دى كالرى ونيكيتا رومانوف وج. س وكلاشينكوف إلى جانب صديق انجليزى أطلق عليه اسما هازلا هو نبست، ولم يشأ الكشف عن اسمه الحقيقى ، وهو راب بطلر زعيم حزب المحافظين البريطانى الذى شغل منصب رئيس الوزراء ثم أصبح عميدا لكلية ترينتى بعد اعتزاله للعمل السياسى . وإلى جانب هذه الشخصية العامة المرموقة عرف نابوكوف فى فترة وجوده بانجلترا اللورد جونباتن . ورغم أن نابوكوف كان يزدرى انجلترا وأسلوب الحياة فيها فإنه اكتسب الكثير من تحفظ الانجليز . وقبيل تخرجه في كامبردج نشر مؤلفنا مقالا فى صحيفة الطلبة عن شعراء انجلترا بيرون وكيتس وبروك ليطالعه الروس المهاجرون فى برلين. وأيضا ترجم مؤلفنا من كتب الأطفال «أليس فى بلاد العجائب» كما نشر ترجمة لكتاب رولاند «كولاس بريجنون» إلى اللغة الروسية . ولاشك أن إنتاجه فى مجال الدراما الشعرية القصيرة فى الفترة من ١٩٢٢ حتى ١٩٢٤ اتسم بمزاوجة التقاليد الأدبية الروسية والتقاليد الأدبية الانجليزية . وبعد تخرجه فى جامعة كامبردج فضل مؤلفنا السفر إلى برلين حيث استقر فيها نحو عقدين من الزمان بسبب كبر حجم الجالية الروسية التى عاشت هناك.

(٣)

ذهب المهاجرون الروس الفارون من وجه الثورة البلشفية إلى جميع أرجاء المعمورة وبخاصة ألمانيا وفرنسا وتشيكوسلوفاكيا ويوغسلافيا. وفي حين رحبت انجلترا بالارستقراط والأمراء الروس فتحت ألمانيا وفرنسا ذراعيها لأصحاب المهن والمثقفين الروس. وفي برلين عاش مؤلفنا على إعطاء الدروس الخصوصية. وذهب أخوه سيرجي إلى باريس حيث عاش بنفس الطريقة. وبسبب تجمع الروس المهاجرين بأعداد كبيرة في ألمانيا صار هذا البلد مركزا مهما من مراكز نشر المطبوعات الروسية في أوروبا لدرجة أن عدد الكتب الروسية المنشورة في برلين فاق المطبوعات الروسية المنشورة في كل من بتروجراد وموسكو . وبلغ عدد الروس المهاجرين إلى برلين نحو مائتي ألف شخص آثروا العيش على مقربة من بعضهم البعض في ضواحيها الجنوبية الغربية .

وتولت منظمات إغاثة اللاجئين - التي كان والد مؤلفنا مسئولا عن واحدة من أبرزها رعاية شئون الروس المهاجرين، ووزعت عليهم المعونة بالعملة الصعبة، الأمر الذي يسر على

المهاجرين الروس سبل العيش فى ألمانيا حيث عاش مؤلفنا على اعطاء دروس اللغة الانجليزية ولعبة التنس لأولاد العائلات الروسية المهاجرة الأكثر ثراء، لقاء مكافآت ورواتب بالعملة الصعبة. ورغم ضيق ذات يد الروس المهاجرين إلى ألمانيا فإنهم كانوا يتنسمون نسيم الحرية وقد وصف مؤلفنا هذه الحياة فى رواياته: «مارى» و«الهدية» و«العين»، وبطبيعة الحال نشأت بعض المشاكل؛ نتيجة اختلاف المشارب والطبائع بين المهاجرين الروس وأصحاب البنسيونات والبيوت الألمان . ويجدر بالذكر أن كثيرا من المهاجرين الروس تزوجوا صاحبات المنازل اللاتى ترملن بسبب موت أزواجهن الألمان فى الحرب العالمية الأولى .

ويذكر جوزيف هسن - وهو صديق نابوكوف الأب - فى مذكراته أنه عاش مع الأديب الروسى المهاجر الكبير أندريه بلى فى بنسيون واحد . وكان بلى فى تلك الفترة من حياته يستعد للانفصال عن زوجته .

وبعد تخرج سيرجى فى جامعة كامبريدج تقرر الحاقه بالعمل فى أحد مصارف برلين. ولكنه لم يعمر فى برلين طويلا بسبب مقته لها ، وقرر السفر إلى باريس . ونصح أحد

الأقرباء مؤلفنا احتراف الكتابة باللغتين الانجليزية والفرنسية ولكن مؤلفنا أصر آنذاك على الكتابة باللغة الروسية . وفى الفترة من ١٩٢١ حتى ١٩٢٥ نشر قصائده في مجلات «المجداف» و«أضواء الشمال» و«وجود» و«المغزل» و«مستقبل روسيا» و«الطائر الناري» .

وفي ألمانيا وقعت حادثة اغتيال أودت بحياة والد مؤلفنا فى أحد الاجتماعات بعد أن قدم للحاضرين فيه السياسى بافل ميليكيوف،الذى كان يشغل منصب وزير في حكومة كرنسكى المؤقتة قبيل نشوب الثورة البلشفية . كان ميليكيوف يستعد لإلقاء خطبته عن روسيا وأمريكا وقدمه نابوكوف الأب للحاضرين . وسعى ميليكيوف فى كلمته إلى استرضاء البلاشفة فقد دعا اليسار الروسى الراديكالى المهاجر إلى التحالف مع النظام البلشفي قائلا إنه يمكن الاستغناء عن النظام القيصرى . وأثارت هذه الدعوة أنصار القيصر المتحمسين فتقدم واحد منهم لاطلاق النار على المتحدث ميليكيوف ولكن الرصاصة طاشت. وسمع الحاضرون صوت عيار آخر . ورأى نابوكوف الأب مسلحا آخر يجرى صوب المنصة مشهرا سلاحه فارتمى عليه نابوكوف الأب بغية نزع

سلاحه. ولكن هذا المهاجم الثانى صوب سلاحه نحو القاعة الحاشدة بالحاضرين، وأصاب امرأة بطلقة فى ركبتها وساد الذعر والفوضى بين الحاضرين واختبأوا أسفل المقاعد . وهو ما فعله ميليكيوف نفسه. وعندما هرع البعض لإنقاذ والد مؤلفنا اتضح لهم أن جسده المسجى كان غارقا فى الدماء بسبب الرصاصات الثلاث التى أطلقت عليه. وأخذ المهاجم الثانى يصرخ صراخا هيستيريا وهو يقول : «لقد انتقمنا لمقتل القيصر» وتكاثر الناس على المهاجمين وتمكنوا من تجريدهما من سلاحهما ثم أوثقوهما إلى الكراسى حتى حضر البوليس وسيارات الإسعاف . كان المهاجم الأول يدعى شابلنسكى والمهاجم الثانى يدعى تابورنبسكى اشتركا فى سكن غرفة قذرة فى ميونيخ .. اتضح أن المهاجم الأول كان يعانى من اضطرابات نفسية بسبب الحرب الأهلية وأن البلاشفة قتلوا خطيبته ، وهزت هذه الواقعة مؤلفنا البالغ من العمر ثلاثة وعشرين عاما من الأعماق رغم ما أظهره من تماسك وطفق يتحدث عن تحديه للمهاجمين واستعداده لمنازلتهما فى مبارزة ، ولم يكن هذا ممكنا لأنهما كانا نزيلى السجن . وعندما استولى هتلر على مقاليد الحكم قام باطلاق

سراح شابلنسكى الذى سافر إلى البرازيل حيث عاش معيشة هادئة ومسالمة حتى وفاته عام ١٩٥٠. وامتدحت صحيفة «شعاع الضوء» هذا المهاجم ، عبرت عن فرحتها الغامرة لمقتل نابوكوف الأب، وشككت فى بطولته. كما أنها عايرت ميليكيوف لسفره مباشرة إلى باريس دون الانتظار لحضور جنازة الرجل الذى لقى مصرعه دفاعا عنه. وتولت السفارة الروسية فى ألمانيا (التى لم تكن السلطات السوفييتية قد استولت عليها حتى عام ١٩٢٢) مراسم دفنه. وجاءت وفاته صدمة عنيفة للشاعر الساخر ساشاتشبورتى الذى حظى بإعجاب الشاعر الكبير مایاکوفسکی فی فترة شبابه. ورغم عدم معرفة الأديب الروسى إيڤان بونين الوثيقة بالمتوفى فقد نعاه فى إحدى مقالاته . ودفنت جثة هذا الرجل فى مدافن اليونانيين الأرثوذكس فى ألمانيا التى قرر مؤلفنا أن يقطع كل صلة بها عند مجىء هتلر إلى الحكم .

وبعد وفاة نابوكوف قام زميله أغسطس كامنيكا فى صحيفة «الأمة» بتدبير شئون عائلته فسعى لدى الحكومة التشيكية المتعاطفة مع قضية المهاجرين الروس؛ كى تصرف لأرملة المتوفى معاشا ضئيلا . وأيضا ذهب أديبنا إلى براغ

للمساعدة فى ترتيب شئون عائلته ثم عاد إلى كامبردج ليقضى فيها ستة أشهر حصل بعدها على شهادة تخرجه فيها ، ويبدو أن مؤلفنا رفض فكرة وفاة والده وتطلع إلى الالتقاء به رافضا الحديث عن موته حتى نهاية عمره، ورغم فجيعته في موت والده قام مؤلفنا بخطبة فتاة تسمى سفيتلاتا زيفرت كانت في الثالثة عشرة حين التقى بها لأول مرة وامتدت معرفته بها على مدى ثلاثة أعوام، ولم ير غضاضة في إعلان خطوبته منها في اليوم التالى لوفاة والده لأنه رأى أن الحياة ينبغي أن تسير سيرها المعتاد. وبعد تخرجه في جامعة كامبريدج عاد مؤلفنا إلى برلين محتفظا بأناقته، ورغم أنه استأنف عددا ضئيلا من علاقاته الغرامية فإن شيئا جوهريا فيه تغير نتيجة مصرع والده الفاجع.

ويلاحظ الدارسون أن شعر مؤلفنا أصبح يخلو من ذكر الله أو الإشارة إليه بعد مصرع والده الدامى باستثناء قصيدته الطويلة «قصيدة الجامعة» التى ألقاها قبل وفاة أبيه ولكنه نشرها عام ١٩٢٧ أى بعد وفاته فى ١٩٢٢ . وفى عام ١٩٢٣ ظهر ديوانان يضمان أشعار نابوكوف الباكرة بعنوانى «الطريق إلى سكن الله في السماوات» و«العنقود» . وقد

أهدى شاعرنا هذين الديوانين إلى والده المتوفى . وكان الأب قبل اغتياله قد تولى ترتيب هذه القصائد بمساعدة الشاعر ساشا تشيرونى عندما كان مؤلفنا يطلب العلم فى كامبريدج. كان تشيرونى صديقا عزيزا للعائلة وأثيرا إلى قلب مؤلفنا الذى وصفه بأنه حبيب إلى النفس وشاعر من الطراز الأول يفرض ذلك النوع من الشعر السياسى الساخر الخفيف الذى يفضله الشعب الروسى . وأيضا يعترف نابوكوف بأن تشيرونى صاحب الفضل فى نشر قصائده وتقريظها . كان تشيرونى يعانى من قلبه الضعيف فقد مات إثر بذل مجهول عنيف فى إطفاء حريق شب فى بيته. ويحتوى ديوان نابوكوف «الطريق إلى سكن الله فى السموات» على ١٢٧ قصيدة فى حين يحتوى ديوان «العنقود» على ٣٦ قصيدة . وقد شن النقاد هجوما عنيفا على الديوان فوصفته صحيفة «الكتاب الروسى الجديد» بأنه ديوان يبعث على الملل فى مجمله، وأنه يستخدم الأخيلة والرموز التى أكل عليها الدهر وشرب . والجدير بالذكر أن صاحب هذا النقد كان صديقه يورى أفروسيموف الذى كان يكتب تحت اسم مستعار، والذى تولى فيما بعد إخراج مسرحية لنابوكوف بعنوان «الرجل الآتى من

الاتحاد السوفييتى» وأيضا شارك رأى أفروسيموف السيىء فى القصائد ناقد آخر اسمه بولى إيكنفال العامل فى مجلة «المجداف» .

تتميز قصائد نابوكوف الباكرة بكثرة ذكر الله وامتلائها بالصلوات والطهر واتحاد روح الشاعر بسائر مخلوقات الخالق . ومن بين قصائده الباكرة قصيدة قصيرة عن دستيوفسكى طرحت هذا السؤال التالى : «هل يمكن أن يكون الله قد خلق خليقته بكل هذا السوء» ؟ ولكن هذا التساؤل المتشكك لا يجب أن يشككنا فى إيمان مؤلفنا الباكر بالدين وخاصة أن والديه عرفا بشدة استمساكها بالدين.

ورغم أن مؤلفنا فى مهجره شعر بالألم الممض لفراقه عن أرض الوطن فإنه ظل حتى عقد الثلاثينيات من القرن العشرين يأمل فى عودة البلاد الممتحنة إلى سابق عهدها وحالتها الطبيعية ، ولكن مؤلفنا مع مر الزمن فقد الإيمان بوجود الله. وعلينا ألا ننسى أن نابوكوف نظم عدة قصائد حول مصرع والده تؤكد إيمانه بالدين مثل قصيدة «عيد القيامة» المنشورة فى صحيفة «المجداف» . وأيضا نظم

مؤلفنا قصيدة تثير الاهتمام بعنوان «ف.د. نابوكوف» التى قيض حول مصرع والده تؤكد إيمانه بالدين مثل قصيدة «عيد القيامة» المنشورة في صحيفة «المجداف» . وأيضا نظم مؤلفنا قصيدة تثير الاهتمام بعنوان «ف.د. نابوكوف» التى قيض لمخطوطتها ألا تندثر بسبب قيام صديق للعائلة بعمل نسخة منها احتفظ بها . وفى هذه القصيدة يناجى الشاعر أباه متخيلا إياه وهو ينحنى عليه ويتمتم باسمه ، وبرزت صورة الموت بجلاء فى كتابات مؤلفنا التى سطرها .

فى العامين التاليين لعام ١٩٢٢ ، كما أن صيورة الموت تتجلى فى مسرحية له بعنوان «الجائلون» ومسرحية أخرى بعنوان «الموت» تتكون أحداثها من فصلين وتقع فى كامبريدج عام ١٨٠٦ ، وهى تدور حول أستاذ جامعي يشك فى أن زوجته تخونه مع أحد طلبته ومريديه . أما المسرحية الثالثة وهى بعنوان «القطب» فتدور حول البعثة التى قام بها المكتشف سكوت في القطب الجنوبى عام ١٩١٢ وقد استوحى نابوكوف هذه المسرحية من زيارة قام بها للمتحف

البريطانى حيث شاهد أوراق المكتشف معروضة فى فترينة، وتقع مسرحيته «المجد» فى فرنسا عام ١٨١٦ وهى تدور حول أرستقراطي استطاع أن ينجو بنفسه من الموت عام ١٧٩٢ وتعتبر مسرحيته «مأساة المستر مورن» التى ألفها عام ١٩٢٤ أطول مسرحية كتبها وهى تتناول موضوع الموت وأساليب استقبال الشخوص المختلفة له وأيضا ألف نابوكوف تمثيلية صامتة (بانتوميم) بعنوان «أجاسفير» لتمثيلها بمصاحبة الموسيقى وقيض لهذه المسرحية أن تقدم مرة واحدة على خشبة المسرح فى برلين . والجدير بالذكر أن جميع مؤلفاته اللاحقة تتضمن بشكل أو آخر .. كل التيمات والموضوعات التى عالجها فى أدبه منذ بداياته حتى عام ١٩٢٤ .

وخلال عام ١٩٢٤ والشهور الأولى من عام ١٩٢٥ ألف نابوكوف مالايقل عن اثنتى عشرة قصة تميل إلى لغة الشعر . ورغم أن إنتاجه الأدبى فى تلك الفترة الباكرة لم يدر عليه أى دخل مادى يذكر فلاشك أنه بعد ١٩٢٣ - ١٩٢٤ احترف الكتابة . فهو يكسب قوته من إعطاء الدروس الخصوصية فى الصباح ويسطر بقلمه إنتاجه الأدبى حتى منتصف الليل فى المساء . والملاحظ أنه كثيرا ما بدأ بعض أعماله دون أن

يستكملها ومن بينها القصص التالية: «امرأة من البندقية» و«هنا الحديث باللغة الروسية» و«الشباب» و«الرجل والأشياء» و«الأصوات»» وقد نشر مؤلفنا كثيرا من أعماله القصصية في صحيفة «المهاجرين في البلطيق» و«اليوم» و«صحيفة برلين الأسبوعية» «الصدى الروسى» وقد ضمن مؤلفنا جانبا من قصصه في الرواية الأولى التي ألفها عام ١٩٢٦ بعنوان «مارى»، وكثيرا ما استخدم مؤلفنا فكرة القرين في إنتاجه الأدبى مثلما فعل جوجول في قصته القصيرة «القرين» وكذلك نظم نابوكوف قصيدة تحمل نفس العنوان، ويحتل موضوع الجنون جانبا مهما في إنتاجه مثلما نرى في قصته «تاخمان» التي نشرها عام ١٩٢٤ في صحيفة «المجداف» . وتعالج موضوع الموت قصتاه اللتان ألفهما عام ١٩٢٥ بعنواني «عيد الميلاد المجيد» و«عودة تشورب» . ورغم ارتباطه الشديد بالماضى وبتراب روسيا، فإنه أهتم بتصوير ما يكابده المهاجر من حزن وشعور بالوحدة . ومن أهم القصص التي ألفها نابوكوف في مقتبل حياته الأدبية قصة بعنوان «عفريت البطاطس» التي نشرها عام ١٩٢٤ في مجلة «الصدى الروسى» وهي قصة تتحرى الواقعية وتتجاوزها في نفس

الوقت .

وبعد موت والده بأقل من عام توفيت خطيبته . غير أن خطبة نابوكوف لها لم تستمر طويلا فقد فسخها لسبب غير معروف . كانت خطيبته فتاة رائعة الحسن والبهاء يفوق جمالها النضير كل الحسناوات الروسيات اللاتى يعشن فى برلين . وتذكر إحدى صديقاتها فى وقت لاحق أن مؤلفنا اقترح عليها اقتراحا خادشا للحياء وهو أن يقبلها قبلة من نوع خاص الأمر الذى جعل الفتاة تعتقد أن خطيبها شخص منحل ومنحرف وتطلب فسخ خطوبتها منه . ويبدو أن عمة هذه الحسناء اعتبرته يساريا يعتنق الآراء الخطرة والهدامة . وحاول بعض الدارسين استجلاء سبب فسخ خطوبته ولكنه آثر الاحتفاظ بهذا السبب سرا . كل ما قاله فى هذا الشأن إن هناك جانبا مأساويا فى علاقته بهذه الفتاة، وأنه ينوى أن يضمنه إحدى رواياته . كان والد سفتلافا يعمل مهندسا فى بطرسبرج، ويتمتع بقدر لا بأس به من اليسار ومقيم فى مسكن فاخر وشاعت الظروف أن يكون هذا الرجل آخر من يقيم حفلة تشهدها بتروجراد عام ١٩١٦ قبل اندلاع الثورة البلشفية . وعندما هاجرت سفتلافا؛ بسبب هذه الثورة إلى

برلين أصبحت نجمة جميع الحفلات التى يقيمها الروس المهاجرون هناك .

وفى ١٩٢٤ سافر مؤلفنا إلى مدينة نيس الفرنسية للاشتغال بالزراعة والفلاحة مع المهاجرين الطليان . ومن هناك كتب نابوكوف خطابا إلى سفتلافا يعبر فيه عن شدة حبه لها وعجزه عن فهم السبب الذى أدى إلى افتراقهما. وأضاف أنه لا يلومها بأى حال من الأحوال على فسخ الخطوبة ويؤكد لها أنه سوف يركز كل اهتمامه فى الكتابة وبعد انقضاء نحو ثمانية أعوام ألف نابوكوف رواية قصيرة بعنوان «العين» ضمنها شيئا عن علاقته بسفتلافا . والجدير بالذكر أن نابوكوف فى نيس مارس هوايته القديمة فى اصطياد الفراشات . وفى فترة عمله بالزراعة كان يستيقظ فى السادسة صباحا ليعمل فترة الصباح ثم يحتسى قدحا من الخمر ويذهب بعد ذلك للسباحة ويأخذ حمام شمس وهو عريان تماما ثم يستأنف عمله وتتضمن رواياته «المجد» و«أدا» رحلته إلى جنوب فرنسا للعمل فى الزراعة .

. وفيما بعد تعرف نابوكوف علي فتاة تدعى فيرا سلونيم وهى ابنة رجل أعمال ناجح وناشر. شاءت الظروف أن يلتقى

بها أثناء زيارته لوالدها للتفاوض معه على نشر بعض أعمال دستوفسكى إلى الإنجليزية . غير أن هذا لم يمنعه من مواصلة علاقاته الغرامية بثلاث أو أربع نساء فى آن واحد .
ولدت فيرا زوجة مؤلفنا - وهى فتاة يهودية - فى بطرسبرج يوم ٥ يناير ١٩٠٢ . درس أبوها القانون فى وقت فرضت على اليهود الروس قيود كثيرة ومن بينها عدم السماح لغير اليهود بالاشتغال بمهنة المحاماة ورغم سهولة تحول اليهود إلى الدين المسيحى آنذاك فقد أصر الأب على الاحتفاظ يهوديته واتجه إلى الاشتغال بالأعمال الحرة وتجارة الأخشاب بوجه خاص . ولم يكن تمسكه بالدين اليهودى نتيجة إيمانه به ولكن نتيجة ضيقه الشديد .. بمعاداة السامية واعتزازه بنفسه وكرامته . وفى طفولتها كانت ابنته فيرا تتمتع بقدر غير عادى من الذكاء والتفوق الدراسى . وقد التحقت بالمدرسة فى وقت مبكر للغاية الأمر الذى اقتضى من ولى أمرها الحصول على إذن خاص من وزارة التربية والتعليم . واتجهت نية هذه التلميذة النجيبة إلى دراسة الفيزياء فى كلية بطرسبرج الفنية . وساعدت فيرا أباها فى تجارة الأخشاب والاستيراد والتصدير كما ساعدته فى إنشاء

دار نشر أوربيس عام ١٩٢٣ في برلين حيث التقى بها نابوكوف في الحفلات . ولكن الدهر سرعان ما قلب لهذا الرجل الثرى ظهر المجن فبا رت تجارته وتدهورت أحواله المالية ورغم ذلك فإنه لم يعان من شظف العيش قط . وفى أغسطس عام ١٩٢٤ كتب نابوكوف إلى أمه يقول: إن الوقت قد حان كى ينعم بالاستقرار العائلى . ولكن أحدا لم يكن يتصور أنه سوف يتزوج من فيرا سلونيم فقد كانت شخصيته نقيضة لشخصيتها فهو كثير الكلام فى حين كانت زوجته مقلة فيه ، لدرجة أنها أبدت امتعاضها من المقابلات التى أجراها بعض الدارسين معها للحديث عن زوجها وعبثا حاول زوجها أن يقنعها بأن هذا شىء عادى وضرورى . وتعكس رواية «الهدية» علاقة نابوكوف من زوجته فيرا سلونيم التى أعجبت بشعره حتى قبل أن تعرفه .

وقد تم زواجها منه فى ١٥ أبريل ١٩٢٥ ومن المعتقد أن الزواج تم بدون معرفة والدته وكان مؤلفنا خالى الوفاض عندما تزوج .

قلنا إن نابوكوف ارتبط بنحو أربع علاقات عاطفية عند زواجه من فيرا . وهؤلاء العشيقات الأربع هن أولجا جوز

وفسكايا التى برزت كممثلة روسية فى برلين ولكن علاقته بها انتهت عام ١٩٢٢ . وكانت العشيقة الثانية شقراء يهودية تدعى روما كيليا تشكينا التى ماتت فى وقت مبكر . وبعد موتها قامت صديقة مشتركة برد خطابات نابوكوف إلى عشيقته اليهودية على عنوانها فى سويسرا ، أما عشيقته الثالثة فهى بيتا إمايا. ونحن نطالع فى رواية «العين» صورة لعشيقته الرابعة . ومعظم العشيقات كن تلميذات يتلقين الدروس الخصوصية على يديه . ويقول مؤلفنا إنه لم يشتق شخصياته الروائية من الواقع باستثناء شخصيته مارى التى صورها فى أولى رواياته .

وفى برلين كان لمؤلفنا صديق حميم هو الشاعر الرمزى المحدود الأهمية نيكولاى منسكى الذى كان يمتلك مقهى فى برلين . كان منسكى فى أيام الجمع يقيم ندوات أدبية وثقافية يحضرها المهاجرون الروس . واستمرت هذه الندوات من عام ١٩٢٠ حتى عام ١٩٢٥ . وعندما تزوج نابوكوف من فيرا كانا يعيشان على دخله من الدورس الخصوصية التى يضيق ذرعاً بها ويتبرم من إعطائها مفضلاً عليها دخله منذ منتصف الثلاثينيات من الجمعيات والمنظمات المختلفة والاشتراك فى

الندوات الثقافية والفكرية .

يقول نابوكوف عن تجربته فى إعطاء الدروس الخصوصية أنها منهكة بسبب ما تتطلبه منه من الانتقال من طرف المدينة إلى طرفها الآخر . وفى بعض الأيام الظهيرة كانت عائلات تلاميذه تدعوه لتناول الغداء معها . وكان هذا الغداء دسما وشهيا في بعض الأحيان . وفى عقد واحد بلغ عدد تلاميذه المنتظمين أربعين تلميذا تلقوا الدروس على يديه فى اللغتين الفرنسية والإنجليزية ولعبة التنس، إلى جانب المصارعة وعلم العروض أحيانا . وذات يوم نظم جوزيف هيسين فى منزله الفسيح مصارعة ودية بين بت جورج ونابوكوف ونسى جورج الضعيف النظر أن المباراة ودية فلكم غريمه لكمة جعلت الدم ينزف من فمه ، وتصور روايته «الهدية» كثيرا من التفاصيل عن هذه الدروس التى تقاضى أجره عنها أحيانا بالدولار . وتضمنت روايته «الملك والملكة والوغد» جانبا من حياته كمدرس خصوصى . وفى برلين تلقى غلام اسمه شورا ذاك الذى ينحدر من عائلة طائلة الثراء على يديه وعلى مدى سنتين ابتداء من عام ١٩٢٧ دروسا فى التنس والمصارعة واللغة الإنجليزية، الأمر الذى وفر له دخلا ثابتا مستقراً ! وبدأت

أحواله المالية تتحسن بشكل واضح عندما أقدمت دار نشر أولشتين على إصدار ترجمة ألمانية لروايته الأولى والثانية وأتاح له هذا فرصة قضاء إجازة فى جبال البيرنيز . وكمدرس اعتاد مؤلفنا الاستيقاظ نحو الحادية عشرة صباحا ليمارس عمله فى فترة الظهيرة . ولكن الأمر كان مختلفا فى حالة تلميذه شورا الذى كان يذهب إليه بانتظام فى السادسة صباحا ويتناول الإفطار معه ثم يبدأ فى إعطائه دروسا فى الرياضة البدنية واللغات والوحيد الذى تلقى دروسا فى العروض على يديه هذا الرجل مالبث أن هلك مع زوجته الشاعرة راسا بلوخ فى أحد معسكرات الاعتقال النازية . وأيضا تلقى جورلين منه دروسا خصوصية فى الأدب الإنجليزى فقد علمه شعر جون ميلتون .

ولاشك أن جورلين كان من ألمع تلاميذ على الاطلاق، ولذا كان من الواضح أنه استقبل بالحزن والوجيعة نبأ وفاة تلميذه جورلين فى أحد معسكرات الاعتقال النازية الأمر الذى جعله يقول إنه سوف يعالج هذه المعسكرات فى أدبه وأنه سوف يزورها ذات مرة ليروى للعالم مآسيها وفواجعها . وبسبب اهتمامه الكبير بلعبة كرة التنس منحه أحد الأندية النفيسة

العضويته مجانا . وأيضا اشترك مؤلفنا فى فترة إقامته فى برلين فى مباراة لكرة القدم ضمن فريق يونيتاس للمهاجرين ضد بعض أندية برلين الألمانية .

وقد لعب مؤلفنا آخر مباراة له فى كرة القدم عام ١٩٣٥ ، ولسوء حظه كان أداؤه كحارس مرمى فى هذه المباراة الأخيرة سيئا فقد سقط أثناء اللعب مغشياً عليه وتكسرت ضلوعه بسبب خشونة الفريق المنافس . ويجدر بالذكر أن الأديب الكسندر دروزدوف كان واحدا من أكفأ اللاعبين فى فريق يونيتاس لكرة القدم .

وقد كان مؤلفنا معجبا بإنتاج دروز دوف الأدبى من قصص قصيرة ومقالات . ولكنه قيض لدروزدوف أن يهاجم المهاجرين الروس هجوما قاذعا دفع مؤلفنا لدعوته للمبارزة ، ولكن درو زدوف رفض قبول هذا التحدى . ويذكر أن برلين اكتظت بأكبر الأدباء الروس المهاجرين أمثال باسترناك» واهرنبرج وأندريه بل حيث يتدبرون أمورهم ويحددون موقفهم من الثورة البلشفية . كانت مناهضة نابوكوف لهذه الثورة نهائية وقاطعة . يقول مؤلفنا عن بونتين أن الثورة البلشفية سعت ما وسعها السعى لاجتذابه للعودة إلى روسيا ولكنه

رفض بكل إباء وشمم . وحزن نابوكوف حزنا بالغا للمصير الفاجع الذى انتظر أندريه بل عند عودته إلى بلاده وللرقابة السوفيتية الصارمة التى فرضها النظام السوفيتى على قلمه . وبقدر ما احترم نابوكوف أندريه بل بقدر ما احتقر أهرنبرج الذى قال عنه إنه ليس كاتبا بالمرة فهو مجرد صحفى فاسد أبداً وأيضاً كانت فكرة مؤلفنا عن الأديب الكسى تولستوى المناصر للثورة البلشفية سيئة . فقد وصفه بأنه ملوث تلوثياً كاملاً .

كان نابوكوف مهملا منسياً فى تاريخ الأدب الروسى حتى عام ١٩٦٦ ولكن اسمه ورد فى ذلك العام فى عدد من المراجع المنشورة داخل الاتحاد السوفيتى مثل «السراب والحقيقة» و«مذكرات مهاجر» التى كتبها ديمترى إيسنر . وحاول بعض رجال الأدب خاملو الذكر والعاملون فى المخابرات السوفيتية أمثال تاراسوف روزيونوف اجتذابه لصف البلاشفة ولكنه رفض، ويعترف مؤلفنا بأنه لم يشتر كتابا واحدا من مكتبات برلين ولكنه التهم بعض الكتب على فترات داخل هذه المكتبات. قلنا إن بعض عملاء النظام السوفيتى حاول إغراءه بالعودة إلى روسيا . غير أنه قال لهذا

العميل إنه لايوجد فنان روسي واحد له قيمته على استعداد أن يعود إليها . فرد عليه العميل السوفيتي إن الأديب بروكوفيف وافق على العودة وأن أندريه بل وسيرجي إيسنيث ومادنيا تفستيفا والأمير ميركسي وفكتور سلوفسكي وباستيرناك وافقوا على العودة والحقيقة أن الثورة البلشفية أبادت عدداً كبيراً منهم بأستثناء شكولوفسكي وباسترناك (راجع كتابي «أدباء روس منشقون في عهد جوزيف ستالين ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩١) .

وفي فترة هجرته إلى أوروبا نشر نابوكوف في مجلة «الدفة» مقالا سياسيا بتاريخ ١٨ نوفمبر ١٩٢٧ أي بمناسبة مرور عشرة أعوام على قيام الثورة البلشفية . ويحمل هذا المقال السياسي عنوان «وظيفة الإيمان» كما يحمل بصمات المقالات التي كتبها والده والتي كان مؤلفنا يحفظها عن ظهر قلب .

يقول مؤلفنا في مقاله إن البلشفية شيء دنيوي يبعث على الملل وأن الهرب منها يعني الحرية الروحية . وحتى عام ١٩٢٧ كان الأمل يحدو مؤلفنا أن ينهار النظام الشيوعي وظل هذا الأمل يراوده حتى منتصف الثلاثينيات في القرن

العشرين وعندما رأى آنذاك أن النظام السوفيتي لا ينهار كتب يقول :

«أريده أن ينهار الآن ولا ينهار غدا . فحتى الأن كان الأمل في انهياره ضربا من الضباب المتفائل .. شبورة من التفاؤل . وأظن أننا بحلول منتصف الخمسينات تخلينا على الفور عن فكرة العودة إلى أرض الوطن . ولكن عدم تمكننا من العودة إليه لم يعد مهما لأن روسيا تعيش بين ضلوعنا وحنايانا . فنحن الممثلون لها . ولا رجاء من عقد الثلاثينات الذى اتسم بالرومانسية الميئوس منها».

وفى عام ١٩٢٨ توفى والدا فيرا زوجة نابوكوف، فقد مات أبوها من مرض عضال باهظ التكاليف فاضطرت فيرا إلى الاشتغال بالترجمة للسياح الأمريكان . ورغم إتقانها للغة الألمانية فإنها كانت لا تحب الاختلاط بالألمان . وفى عام ١٩٣٠ تلقت دروسا فى الاختزال واشتغلت لمدة ثمانية شهور تقريبا فى شركة استشارات قانونية تمثل مصالح القطاع التجارى بالسفارة الفرنسية . وأيضا قامت بإعطاء بعض الدروس الخصوصية فى اللغة الإنجليزية ولكن الاختزال كان مصدر دخلها الرئيسى . وإنها لمفارقة أن يضطر بعض نواب

هتلر عام ١٩٣٥ إلى الاستعانة بها رغم يهوديتها . وعندما نبهت المسئولين إلى يهوديتها استنكروا ذلك زاعمين أنهم لا يفرقون بين الألمان واليهود . وأظهرت فيرا شجاعة عندما اعترفت باشتراكها فى مؤامرة تهدف إلى اغتيال تروتسكى عند مجيئه إلى برلين ولكن المؤامرة لم تنجح لأن تروتسكى ألغى رحلته إلى برلين فى آخر لحظة . وفى مهجره الألمانى عاش نابوكوف سبعة عشر عاما تمثل فترة خصيبة فى حياته الأدبية .

كان فى برلين آنذاك صالونان أدبيان أحدهما يحضره الأدباء الشبان والثانى يؤمه الأدباء المخضرمون وتعقده رايسا تاترينوف زوجة أحد محررى «الدفة» مرة كل أسبوع .. وكان نابوكوف يحضر الصالونين الأول بوصفه أديبا ثابت الأقدام والثانى بوصفه أديبا واعدا . وكان من عادته أن يقرأ شعره أمام الأدباء الشبان ويقرأ قصصه وأجزاء من رواياته أمام الأدباء المخضرمين . وقرأ مؤلفنا روايته «مارى» بأكملها فى جلسة واحدة استغرقت ثلاث ساعات تخللتها استراحة فاستقبلها جمهور المخضرمين بحماس بالغ وتنبأ أحد النقاد بأنه سيكون تورجينيف الجديد . وأيضا كان فى برلين آنذاك

نحو عشر مجلات أثنت كلها عليه وقرظت روايته «ماری» . ولكن زوجة لانداو عابت عليها بريق أسلوبها وزركشته . ويبدو أن مؤلفنا استجاب لهذا النقد لأنه تحاشى استخدام الأسلوب المزركش اللامع فی روايته التالية . ورغم معيشته فی برلين فقد ادعى جهلة باللغة الألمانية فهو يقول فى المقدمة الإنجليزية لروايته : «الملك والملكة والوغد» : «لم أتحدث الألمانية ولم يكن لى أصدقاء ألمان ولم أقرأ رواية ألمانية واحدة لا فی أصلها أو فی ترجمتها» وفی كل فترة هجرته فی أوروبا لم ينشر له سوى حوار واحد فی صحيفة «اليوم» الصادرة فی نوفمبر ١٩٣٢ التی اتهمت كتاباته بتقليد بعض النماذج الأجنبية فجاء رد مؤلفنا على هذا الاتهام بقوله :

«هذا رأى يبحث على التسلية أنت تعيب عليّ تأثرى بكتاب ومؤلفين ألمان لا أعرفهم وبهذه المناسبة أذكر أن قدرتی على التحدث والقراءة باللغة الألمانية ضعيفة للغاية . ولعل الأجدر الحديث عن تأثرى بالمؤثرات الفرنسية فأنا أحب فلوبيرت وبروست. ومن الغريب أننى أدركت قربى من الثقافة الغربية وأنا لا أزال فی روسيا . غير أنى وأنا أعيش فی الغرب لم أقف أثر أى كاتب روسى . فأنا فى الغرب أشعر بوجه خاص سحر جوجول وتشيكوف الأقرب منه إلينا من الناحية الأمنية»

ورغم إنكار نابوكوف إلمامه باللغة الألمانية فإن هذا لم يمنع من إشارة بعض النقادإلى تأثره ببعض الكتاب الألمان مثل ليونهارد فرانك وبالمذهب التعبيرى وهو مذهب يرمى إلى تمثيل الأشياء كما تصورها انفعالات الفنان أو الأديب نحوها لا كما هى فى الحقيقة والواقع .

وفى برلين أضطلع مؤلفنا بأداء الأدوار الثانوية فى بعض الأفلام . وأثناء انتهائه من تأليف رواية «الملك والملكة والوغد» استبد به الحنين إلى اصطياد الفراشات ولكنه قاوم هذا الإغراء بكل ما أوتى من عزم وقوة وفى عام ١٩٢٥ بينما هو متجه لإعطاء الدرس لتلميذه شورا ذاك فى الصباح الباكر رأى طحلبا نادرا ضخما على فرع شجرة بالقرب من محطة قطار تشارلو تنبرج فاصطاده بقبعته وأخذه للتو إلى محل بيع فراشات قريب وباعة إلى صاحب المحل المندهش من ندرة الطحلب وضخامة حجمه . وفى عام ١٩٢٦ قام مؤلفنا بزيارة معهد الحشرات فى داهلم الواقع فى ضواحى برلين بصحبة صديق روسى ، حيث تعرف بعالم حشرات معروف اسمه مولتريخت الذى ترك حبه للحشرات فى نفس نابوكوف أعمق الأثر .

كان نابوكوف مجيدا في إلقاء الشعر في المنتديات الأدبية حيث قرأ النصوص الكاملة لرواياته أمام جمهور المستمعين . في يوم من مارس ١٩٣٠ قرأ عليهم النص الكامل لروايته «العين» ويبدو أنه كان يدرك قدرته على التأثير في المستمعين. قلنا إن مؤلفنا لعب بعض الأدوار الثانوية على الشاشة الفضية . حدث ذلك في الفترة من عام ١٩٢٣ حتى عام ١٩٢٤ . . وأيضا قامت زوجته فيرا قبل أن تتعرف عليه بأداء بعض هذه الأدوار السينمائية الثانوية . والجدير بالذكر أن برلين شهدت نشاطا سينمائيا كبيرا قامت به شركات روسية في الفترة من ١٩٢٥ حتى ١٩٣٠ . وأيضا اشترك مؤلفنا مع شاعر صديق له يدعى إيڤان لوكاش في إعداد سيناريوهات بعض الأفلام . ويعتبر نص «عفريت البطاطس» واحدا من أحسن سيناريوهاته . واتصل لويس مايلستون به في برلين وطلب منه الحضور إلى هوليود فغمرت الفرحة قلبه . قائلا إنه يحب السينما ويحرص على مشاهدة الأفلام بشغف شديد .

وأيضا اشترك نابوكوف ولوكاش في تقديم بعض الاسكتشات الخفيفة في مقهى «الطائر الأزرق» في برلين غير أن هذا المقهى كثيرا ما امتنع عن دفع أجره مما جعله يهدد

بالالتجاء إلى القضاء . وقد فشل مؤلفنا عندما اشترك مع لوكاش ومؤلف موسيقى يدعى ياكوسون فى تقديم باليه سيمفونى على خشبة المسرح . وكان نابوكوف تربطة علاقة ودية بالمخرج يورىّ أفروتسموف الذى كلفه فيما بعد بكتابة مسرحية تدور حول عميل مزدوج بعنوان «رجل فى الاتحاد السوفيتى» وقد عبر مؤلفنا عن عظيم إعجابه بأدب لوكاش وهو ما نراه فى روايته «المجد» التى تجسد شخصية لوكاش فى شخصية بونيوف .

تحسنت أحوال مؤلفنا المادية عندما اتفقت معه دار «أنستين» على ترجمة روايتيه الأوليين إلى الألمانية ونشرهما على صفحات الجرائد والمجلات . وفى أحد الأيام علقت فيرا على لغة زوجها الإنجليزية ووصفتها بأنها مهتزة فاحتج زوجها على ذلك احتجاجا شديداً قائلا : «لا» وكررها خمس مرات «إنها لاتزال جيدة كما كانت فهى لغتى الأولى وعلينا ألا ننسى ذلك»، نعم إنها لاتزال لغتى الأولى . فعندما كنت فى الثانية والثالثة والرابعة من عمرى اعتادت أمى أن تترجم لى الكلمات الروسية إلى الإنجليزية» .

وبحلول عام ١٩٢٨ كان نابوكوف قد ألف روايتين واثنتين

وعشرين قصة قصيرة ونحو ألف قصيدة . وقد كان عاما ١٩٢٨ و١٩٢٩ فاتحة خير عليه فهما العامان اللذان اشترت فيهما دار أنشتين - كما أسلفنا - حتى ترجمة بعض رواياته إلى الألمانية ، كما إنهما العامان اللذان شاهدا الاستعداد لنشر مجوعته القصصية القصيرة «عودة» باللغة الروسية الأمر الذى مكنه من قضاء إجازة فى جبال إلبيرنيز استنفدت كل مايمتلك كما مكنته من كتابة بحث علمى آخر عن الفراش نشرته «مجلة علم الحشرات» وهى نفس المجلة التى سبق أن نشرت بحثة الأول عنها . وتتضمن رواياته «الدفاع» و«العين» و«المجد» و«اليأس» موضوع القنوط واللوثة والجنون والقرين .

وفى عامى ١٩٢٥ و١٩٢٦ اشترك مؤلفنا فى محاكمتين أدبيتين صوريتين . وفكرة المحاكمات الأدبية راسخة فى الأدب الروسى بسبب تعرضه المستمر للقمع والرقابة والضغوط . ففى يوليه ١٩٢٦ اضطلع بدور كبير فى المحاكمة الأدبية الصورية التى تعرضت لها رواية تولستوى «الكروتزر سوفانا» حيث لعب فيها دور القاتل . وهى محاكمات أقرب ما تكون إلى التمثيل على خشبة المسرح . فضلا عن أنه ضمن هذا الشكل الأدبى فى كل من روايتيه «اليأس» و«لوليتا» ولا

يفوتنا هنا أن نذكر أن المهاجرين الروس فى فرنسا عقدوا محاكمة أدبية صورية لروايته الشهيرة «لوليتا» . وقبل ذلك بعام (١٩٢٥) ألف نيكولاى إيفرينوف مسرحية بعنوان «الشيء الأساسى» قدمت على عدد كبير من المسارح الأوروبية .

وقد عقد اتحاد الصحفيين الروس فى ألمانيا محاكمة لايفربنبوف لعب فيها نابوكوف دورا بارزا . وتركت هذه المحاكمات الأدبية أثرها فى شكل عدد من الروايات التى سطرها مؤلفنا مثل «العين» و«المجد» و«النار الباهتة» «انظر إلى الخادم» «سماع الكوميدى اللماح» .

ويتميز أدب نابوكوف بقدرته على تجسيد الشواذ والشذوذ.

وكان من عادته أن يجرب الشيء ويعرفه عن كثب قبل الكتابة عنه . فهو على سبيل المثال يستشيرطبيباً ويدفع له أجرا قبل أن يقتل إحدى بطلاته . وينتهز فرصة وجوده فى باريس عام ١٩٢٩ لحضور إحدى بطولات الشطرنج قبل الكتابة عن هذه اللعبة رغم أنه كان شديد الإتقان لها وتدور روايته «الدفاع» حول هذه اللعبة . وقد أثنى عاطر الثناء علي

هذه الرواية أدباء روس مرموقون من بينهم فودا سفيتش وزمياتن وقد اعتبرها هذا الأخير أهم رواية كتبها أديب روسى فى بلاد المهجر، ولا شك أن رواية الدفاع رسخت أقدام فلاديمير نابوكوف فى عالم الأدب .

ومن المهم أن نعرف أن الأديب جريجورى إيفانوف شن فى صحيفة «أعداد» هجوما على نابوكوف . فقد تضمن مقاله هجوما على رواياته الثلاث الأولى ومجموعته القصصية الفقيرة وعلى قصائده، ورغم هذا الهجوم فإنه يعترف بموهبة نابوكوف الأدبية، وبريق أسلوبه فى الكتابة، وقد ركز إيڤانوف هجومه بوجه خاص على روايته «مارى» ومجموعة قصصه الأخيرة واصفاً كتاباته بأنها مجرد تقليد لنماذج أجنبية . وانضم إلى الهجوم عليه أديب آخر هو أداموفيننتش . ولم يسكت مؤلفنا على هذا الهجوم فتصدى له بهجوم مضاد فى قالب قصة سعى مؤلفنا إلى نشرها فى باريس فى مجلة «آخر الأنباء» . ولكن المجلة خشيت أن تؤدى هذه الملاحاة إلى لجوء أطرافها إلى القضاء فامتنعت عن النشر . ولهذا تعطل نشر هذه القصة خمسة وعشرين عاما .

وقد أنشأ الأديب مبنشا جورلين جماعة أدبية اسمها

«دائرة الشعراء» لعب نابوكوف والشاعر فلاديمير كورفين بيتروفسكى دورا قياديا فيها . وكانت الجماعة تجتمع مرة كل أسبوع فى أحد المقاهى أو فى شقة أحد الأعضاء . غير أن مؤلفنا لم يكن منتظما فى حضور اجتماعاتها بسبب سهره فى الكتابة . وجرت هذه الاجتماعات على النحو التالى: يقوم أحد الحاضرين بتلاوة قصيدة شعر ثم تبدأ المناقشة حول هذه القصيدة . وكثيرا ما كان نابوكوف يلعب دور الأستاذ أو القائد الساخر باديا بالهجوم على القصيدة . وكان الشاعر الوحيد الذى اعتبره مؤلفنا نداً له هو بيتروفسكى الذى لم يكترث بهجوم نابوكوف عليه . وذات مرة كاد الرجلان يتشابكان بالأيدى ويتبادلا اللكمات . ورغم ذلك نرى مؤلفنا يعرض ديوان الشعر الذى أصدره غريمه عام ١٩٢٩ بعنوان «بياتريس» وعلى الرغم من أن بيتروفسكى نشر قصيدة تقدح فى مؤلفنا فإنه فكر فى ترجمة بعض أشعار غريمه إلى اللغة الإنجليزية .

كتب نابوكوف أول هجوم على المذهب الفرويدى عام ١٩٣١ نشر فى إحدى الصحف التى يصدرها المهاجرون الروس فى باريس تدعى «الجازيت الجديدة» . والجدير بالذكر

أن هذه الصحيفة نشرت استبيانا عمن يعتبرهم القراء أهم الكتاب والمؤلفين الروس المهاجرين فجاء اسم نابوكوف في طليعتهم وقد اعتبر بعض النقاد رواية «الدفاع» أهم عمل أدبى ظهر فى الفترة الأخيرة ومن بينهم الأديب فواداسفتش .

قلنا إن شواذ الجنس يلعبون دورا بارزا فى أدب نابوكوف. ويظهر هذا جليا فى إنتاجه الأدبى منذ البداية . ففى عام ١٩٢٨ سطر قصيدة بعنوان «ليليث» تحكى قصة رجل مقتول يغتصب طفلة ولكن الطفلة تختفى من أمام عينيه فى لحظة الجماع عندما يكتشف القتيل المغتصب أنه فى الجحيم . ولم تر هذه القصيدة طريقها للنشر حتى عام ١٩٧٠.

وكان من عادة مؤلفنا أن يخاطب أمه باسم الدلع «لوليتا» الذى يحتمل أن يكون قد أوحى إليه باسم روايته الشهيرة «لوليتا» . وعلى النقيض من والده المهتم بالسياسة ازدراها مؤلفنا وانصرف عنها . أما أخوه سيرجى فكان يعيش فى بادئ الأمر فى بحبوحة من العيش، الأمر الذى مكنه من مساعدة أمه التى عانت من شظف العيش فى براغ . ولكنه

توقف عن مساعدتها عام ١٩٣٤ عندما تدهورت أحواله المالية . وكان أخوه كيريل في سن العشرينات يأمل أن يصبح شاعرا . وعبثا حاول نابوكوف صرفه عن ذلك ناصحا إياه بأن جمع القمامة كوظيفة أفضل من قرض الشعر كما أنه حاول إثناءه عن زيارة أمه في براغ بسبب توترها وسوء حالتها العصبية واشتغل كيريل في مكتب سياحة في بلجيكا قبل أن يلتحق بالعمل في راديو أوروبا الحرة في ميونخ . وكانت علاقة نابوكوف باخية سيرجي - كما هو واضح من مذكراته «تحدثي أيتها الذاكرة» يشوبها شيء من التوتر لدرجة أنه وجد شيئا في من العسر في الكتابة عنه بعد وفاته. وفي مهجرهما كان مؤلفنا يلتقي بأخيه سيرجي من وقت لآخر حتى قدر لنابوكوف أن يهاجر إلى أمريكا وحتى زج بسيرجي في معسكر اعتقال نازي في شمال ألمانيا . ويقال إنه كان على علاقة مثلية مع عاشق ألماني . وعلى أية حال تم القبض عليه في ١٥ ديسمبر ١٩٤٣ .

ويقال إن آخر من رأته من العائلة قبل الزج به في معسكر الاعتقال النازي كانت أخت الموسيقار نيكولاي نابوكوف . وكان سيرجي آنذاك ينتظر القبض عليه بين لحظة وأخرى لأن

واحدا فى الجستابو أبلغ السلطات النازية أنه تفوه بالعبارة التالية : «ورغم هذا نجد أن إنجلترا هى أكثر البلاد تحضرا فى العالم» . وقد تحول سيرجى فى أخريات أيامه إلى مذهب الكنيسة الرومانية الكاثوليكية . ويقول أحد الروس من زملائه فى معسكر الاعتقال وأحد الناجين من الموت فيه: إن سيرجى أمضى بقية حياته فى الصلاة وتعزية زملائه المعتقلين .

وفى عام ١٩٣٦ ألف نابوكوف قصة قصيرة بعنوان «إبادة الطغاة» يذهب فيها إلى أن المرء يستطيع أن يتحدى الطغاة عن طريق السخرية منهم أو الانتحار . وتعتبر القصة القصيرة التى ألفها نابوكوف عام ١٩٣٧ بعنوان «السحاب والبحيرة والبرج» (التى ترجمت إلى الإنجليزية بعنوان «السحاب والقلعة والبحيرة») قريبة الشبه بروايته «دعوة إلى قطع الرأس» . فضلا عن أنها رواية خرافية تؤكد أهمية الفردية فى مواجهة الضغوط الاجتماعية والجدير بالذكر أن مؤلفنا وزوجته أعليا من شأن رواية «دعوة إلى قطع الرأس»، واعتبراها إحدى روائعه . ويرى بعض النقاد أن رواية «دعوة إلى قطع الرأس» تتضمن تبريرا للنرجسية . وفى أوائل عقد الثلاثينات ألف نابوكوف رواية كان عنوانها الأصلى «الكاميرا

الغامضة» قبل أن يتغير ليصبح «الضحك فى الظلام» . وهى تدور حول الشعور بالوحشة والوحدة الذى يكابدها الإنسان . والذى لاشك فيه أن روايته «دعوة إلى قطع الرأس» (التى تبين أن الحياة مجرد حلم) تنم عن تأثرها بكافكا رغم أن مؤلفنا يزعم أنه قرأ كافكا فى مرحلة متأخرة من حياته فضلا عن تأثره بجو جول الذى ترك أثره العميق فى مجموعة كبيرة من الكتاب الروس أمثال دستوفسكى وسكوفو – كموبيلين وسالينبوكوف – ششدرين وسولوجوب وبل وسافتش والفرنيوف . ويرى بعض الدارسين أن مؤلفنا يتأرجح فى تأثره بين كل من بوشكين وجوجول .

ظل نابوكوف يشعر بالارتياح فى ألمانيا حتى استيلاء النازية علي الحكم عام ١٩٣٣ . وفى الفترة من ١٩٣٢ حتى ١٩٣٧ لم يجد نابوكوف وزوجته أية متاعب فى دفع الإيجار لأن مالكة العقار كانت ابنة خالة فيرا إفيسينا . ولم يتنبه كثير من المهاجرين الروس إلى الأخطار الداهمة التى أحاقت باليهود فى ظل النظام النازى . بل إن بعضهم تعاطف مع هجوم هتلر على الشيوعية . ولكن نابوكوف وزوجته أدركا هذا الخطر منذ البداية، الأمر الذى جعلهما يفكران فى الهجرة إلى استراليا . ولكنهما لم يضعا هذه الفكرة موضع

التنفيذ بسبب ما انطوت عليه الهجرة إلى استراليا من إجراءات معقدة . ثم فكر مؤلفنا فى الهجرة إلى بلجيكا،ففى عام ١٩٣٢ كتب إلى صديقته وناقدته الأديبة زينايدا ستشاكوفسكى معبرا عن عزمه على مغادرة برلين وألمانيا إلى الأبد ولكن نقص المال حال دون هجرته . فضلا عن اصطدامه بكثير من العقبات المتصلة بالهجرة آنذاك . وفى عام ١٩٣٦ طلب نابوكوف من صديقته زينايدا أن تبحث له عن مسكن صغير ورخيص فى أقاليم بلجيكا وليس فى عاصمتها بروكسل . وأحزنه عام ١٩٣٦ أن يسمع أن صحة والدته تدهورت وأنها تتضور جوعا فى تشيكوسلوفاكيا . غير أنه عدل عن فكرة الهجرة إلى بلجيكا .

ونحو عام ١٩٢٩ شعر نابوكوف بشىء من التحسن فى أحواله المالية فقام بشراء قطعة أرض صغيرة للغاية فى منطقة كولبرج الألمانية التى كان الألمان يزورونها فى فصل الصيف كمنتجع . ولكنه اتضح لمؤلفنا بعد انقضاء سنتين عجزه عن الوفاء بثمن قطعة الأرض فأرجعها إلى صاحبها . وقد استخدم نابوكوف هذه القطعة الصغيرة عام ١٩٣٦ كى تصبح مكان وقوع أحداث روايته «البأس» . وزاد من سوء

أحواله المالية أن صحيفة «الدفة» لم تعد تجزل له العطاء على مقالاته لأنها كانت تمر بأزمة مالية . فضلا عن أن النظام النازى فرض حصارا ماليا على زوجته واستغنى عن العمل الذى تضطلع به فى مجال الاختزال والترجمة الفورية . وخطر له السفر إلى فرنسا وشجعه على ذلك إتقانه للغة الفرنسية . وفى مايو ١٩٣٠ دعته براغ إلى قراءة جانب من أعماله في منتدى أدبى لقاء مبلغ من المال . ونظرا لشهرته ككاتب بين المهاجرين الروس تكررت مثل هذه الدعوات إلى المنتديات الأدبية . ويروى لنا فاسيلى بانوفسكى فى مذكراته الروسية العداوة الشديدة التى واستقبل بها مؤلفنا فى أول ندوة أدبية عقدها فى باريس عام ١٩٣٢ . فقد كان الروس القدامى يشكون فى مظهره البراق العايق - فى حين رأت الأجيال الأصغر سنا أنه يفتقر إلى الوضوح والإخلاص . وكانت هذه العداوة سببا فى شعور بانوفسكى بالعطف عليه متناسيا أن مؤلفنا انتقد كتاباته انتقادا لاذعا فى مجلة «الدفة» واعتبر الحاضرون لندوته الباريسية كتاباته عديمة القيمة والفائدة . وهو نفس الرأى الذى عبر عنه الأديب الكبير إسحق بابل عندما حضر إلى باريس . وبعد باريس أخذ نابوكوف يجوب أرجاء أوروبا فزار أنتوبرت فى هولندا

وبروكسل في بلجيكا وتسلل لها دون تأشيرة دخول لأن زملاءه علموه كيف يجتاز حدود هذين البلدين سرا . وأيضا فى زيارته الثانية لبراغ لقراءة بعض إنتاجه الأدبى اضطرته الحراسة النازية للأراضى التشيكوسلوفاكية إلى التسلل إليها حاملاً معه مخطوطة روايته «السحاب والقلعة والبحيرة» التى تتضمن هجاء لاذعا للشخصية الألمانية . وكان يلذ لمؤلفنا أن يروى كيف اضطرت السلطات النازية الأديب الروسى الكبير إيفان بونين إلى شرب مطهر للتأكد من أنه لا يحاول تهريب بعض المجوهرات فى أمعائه من ألمانيا التى تستعد لخوض غمار الحرب العالمية الثانية والجدير بالذكر أن نابوكوف قبل عام ١٩٣٤ بوقت قصير التقى بونين فى مقهى ألدون فى برلين وطلب منه تهريب بعض النقود التى تعيش فى باريس ولكن بونين رفض . وعندما قام النازيون بتحطيم واجهات محلات اليهود فى برلين قام نابوكوف برفقة صديق له بزيارة أصحاب هذه المحلات للتعبير عن اشمئزازهما من الهمجية النازية . ودعاه فيودور ستيبن الأستاذ بقسم اللغة الروسية بجامعة درسدن إلى لقاء محاضرة هامة .

وعندما استتبت الديكتاتورية النازية عام ١٩٣٤ نادى هتلر برحيل المهاجرين الروس عن الأراضى الألمانية . وبينما

زوجته تلد ديمترى فى هذا العام شغل نابوكوف نفسه بلعب الشطرنج حتى الثالثة صباحا ورغم الشهرة التى حققها مؤلفنا فى الفترة من ١٩٢٩ حتى ١٩٣٧ فإن شبح العوز ظل يطارده . ولهذا تقدم عام ١٩٣٣ بطلب إعانة من صندوق الكتاب الروس لايزيد عن سطر واحد . فأعطاه الصندوق ٢٥٠ فرانك تلقاها مؤلفنا بكل كبرياء وشمم ودون كلمة شكر واحدة وكانت عزة نفسه سببا فى إلحاق الضرر به فقد تلقى أدباء آخرون أقل منه شأنا أضعاف هذا المبلغ. وفى أغسطس عام ١٩٣٤ بعد أن أنجب ولده الأكبر ديمترى كتب إلى أمه يشكو من تراكم الديون عليه وعجزه عن مساعدتها.

وفى أواخر عام ١٩٣٥ ظهرت أولى المقالات التى تناولت أدبه - وهى بقلم ألبرت بارى - فى صحيفتى «الأمريكان مركيورى» و«النيويورك تايمز» باعتباره واحدا من أهم الأدباء الروس المهاجرين. وكتب مؤلفنا إلى أمه يشكو رقة حاله لأنه غير قادر على شراء بنطلون عليه القيمة رغم أن جريدة النيويورك تايمز قالت إنه بأدبه أثرى العصر الذى نعيش فيه وفى أوائل عام ١٩٣٧ جاب أنحاء انجلترا لالقاء المحاضرات ولكنه عجز عن الحصول على أية وظيفة أكاديمية كما كان يأمل.

ووصل نابوكوف إلى قمة تألقه الأدبى عندما زار فرنسا

للمرة الثانية عام ١٩٣٦ لقراءة بعض انتاجه الأدبى فى
مساءعام ١٩٣٦ لقراءة بعض انتاجه الأدبى فى مساء يوم ٦
فبراير، وقد تابع إحدى قراءاته الروائى الإنجليزى الكبير
جيمس جويس وتعرف به عن طريق أصدقاء مشتركين، وفى
عام ١٩٣٠ - ١٩٣١ ألف قصة تنصح بالاشتهاء بعنوان
«شخص جرىء» تدور حول القذف السريع. وهو موضوع
تطرق إليه كاتبنا بتوسع أكبر فى رواية «اليأس» .. ويبدو أن
نابوكوف المستغرق فى الجنس فى حياته الخاصة لايحمل
المودة للشخصيات النسائية التى يرسمها فى رواياته.
وتتضمن قصته «ربيع فى خيالنا» انحلال مؤلفها الجنسى.
يقول جورج هسن الذى لايعرفه عن كثب إن زواجه لم يحل
دون دورانه على حل شعره . وقد تعرضت نسخة معدلة من
روايته «اليأس» لحظر بعض فقراتها التى تصور بطلها
هيرمان وقد انسلخ عن نفسه وتصور - وقد غمرته الشهوة -
نفسه وهو يضاجع زوجته ليديا مستخدما فى ذلك نظارة
مكبرة.. هذه الخيالات الشاذة تتضمن لوثة وجنونا واضحا.

وفى عام ١٩٣٤ غادر مؤلفنا برلين ليتخلى نهائيا عن
التأليف باللغة الروسية. وذهب إلى فرنسا قبل سقوط باريس

أمام النازية بثلاثة أعوام. وبرحيله عن برلين إلى باريس دخل نابوكوف مرحلة جديدة هى التأليف باللغة الفرنسية ثم باللغة الإنجليزية، واللافت للنظر أن المهاجرين الروس الذين عاشوا في باريس فى عقد الثلاثينات كانوا أقل ثقافة من نظرائهم فى برلين .

تقول فيرا زوجة نابوكوف: إن السبب الذى دعاه إلى مغادرة برلين نهائيا هو أن تابورنيسكى الذى اشترك فى اغتيال أبيه أطلق سراحه من السجن عام ١٩٣٧ ليعينه هتلر مسئولا عن إدارة شئون الهجرة، ومن ناحيتها أصرت فيرا على مغادرة برلين على الفور. ولحسن حظه استطاع مؤلفنا إثبات أحقيته فى وراثة صندوق نشوق قديم بيع فى المزاد العلنى فدر عليه مئات الدولارات التى مكنته من الاستعداد لمغادرة ألمانيا، فضلا عن أن نشر الترجمة الإنجليزية لروايته «البأس» در عليه مبلغا كبيرا من المال .

وفى الفترة الأخيرة من حياته فى برلين اضطرت زوجته للخروج بانتظام من أجل الحصول على لقمة العيش فى حين بقى زوجها فى البيت لرعاية طفلها والاضطلاع بشغل البيت، وعندما كان الجو صحوا اعتاد مؤلفنا اصطحاب ابنه ديمترى

للتمشية والفسحة فى التاسعة صباحا والأوبة إلى البيت فى نحو الساعة الواحدة ظهرا. وبعد تناول الغداء كان مؤلفنا يغفو حتى الساعة الرابعة بعد الظهر ليسقي ولده قدحا من الكاكاو ثم يخرج به أبوه إلى الشارع مرة أخرى. وكان نابوكوف يدرب ابنه على استخدام دورة المياه ويعلمه الاستحمام غير أن جهده في تربية طفله أنهك قواه.

كما سبق أن ذكرنا لم يكن نابوكوف مخلصا لزوجته، فعندما زار باريس للمرة الثانية انخرط فى علاقة غرامية مع امرأة تدعى إيرينا جوادينين تزوجت من ملازم روسى يعمل فى الكونجو يدعى مالاخوف ولكنها رفضت الذهاب معه واستخرجت شهادة طبية تفيد أن حالتها الصحية لاتتحمل الأجواء الاستوائية. فاضطر الزوج إلى الرحيل إلى الكونجو بمفرده ثم قام بتطليقها وكانت لايرينا ميول أدبية .

سافرت ايرينا وأمها إلى باريس واستقرت فى حى موينارناس حيث عكفت على كتابة الشعر ونشرت كتابا بعنوان «خطابات» امتدحه الناقد فلاديمير سمولنسكى. كانت ايرينا امرأة شهوانية متأججة العواطف التقت بنابوكوف فى يناير ١٩٣٧. وتروى والدة ايرينا فى يومياتها إن حب الشعر

جمع بين ابنتها وعشيقها . كان نابوكوف وايرينا يخرجان سويا لارتياد المقاهى ومشاهدة الأفلام حتى وقت متأخر من الليل. ويعتقد أن والدة ايرينا أفزعتها هذه العلاقة فكتبت خطابا غفلا عن الامضاء لتنبيه زوجة نابوكوف لحقيقة ما يحدث من وراء ظهرها، ولعب الفأر فى عب فيرا فسافرت من برلين إلى باريس وفى تلك الفترة مرض نابوكوف بداء الصدفة فسافر مع زوجته إلى منتجع الريفييرا بعد زيارة قصيرة وأخيرة لأمه فى براغ . ولم يكن نابوكوف آنذاك قد قطع علاقته بايرينا التى أرسل اليها سبعة خطابات غرامية وفيها عبر عن فزعه من هذه العلاقة الجديدة التى أنسته أربعة عشر عاما من السعادة الزوجية. وأشار نابوكوف فى خطاب له إلى إحدى مغامراته الجنسية خارج نطاق الزوجية ضاجع فيها امرأة ألمانية فى غابة تقع فى جنوب برلين ثم قطع علاقته بها نهائيا فضلا عن معاشرته لبعض تلميذاته . وفى عام ١٩٣٦ ضاجع امرأة فى فرنسا أربع مرات دون أن يحمل لها أدنى حب أو مودة. ولكنه وجد متعة من معاشرة ايرينا لدرجة أنه قال لها إنه لولا ابنه ديمترى لطلق زوجته من أجلها، ولكن الخطاب الغفل عن الامضاء الذى أرسلته أم ايرينا إلى زوجة

نابوكوف عكر صفو العلاقة بين العاشقين وجعل مؤلفنا يطلب من عشيقته رد خطاباته إليه مؤكدا لها أنه بالغ فى تصوير عواطفه نحوها وسعت ايرينا إلى استئناف علاقتها به غير أنه ازور عنها . وقد ماتت هذه العشيقة فى إملاق فطلب منه صديق مشترك أن يقدم إليها العون ولكنه كان شحيحا فى تقديمه لها، وماتت إيرينا فى نوفمبر ١٩٧٦ فى بيت للمسنين الروس فى ضواحى باريس .

وفى أوائل عقد الثلاثينات ظل إيليا فوندا منسكى يشجع نابوكوف على نشر مقالاته فى فصليته «الوثائق المعاصرة» ولكن فوندا منسكى تخلى عن تحمسه له بسبب انصرافه إلى الدين مما جعله يترك عمله فى تحرير هذه الفصلية . ولهذا وجد مؤلفنا صدودا من جانب أحد محررى هذه الفصلية عندما حاول نشر فصل من روايته «الهدية» على صفحاتها وفى زيارته الأولى لباريس لقراءة بعض أعماله فى أكتوبر ١٩٣٢ اعتاد نابوكوف أن يزور فوندا منسكى كل يوم ودعاه فوندا منسكى وزوجته إلى الإقامة فى منزلهما وبذلا كل جهدهما للعمل على راحته. وفى فترة تحمسه له اشترى فوندا منسكى فى عقد الثلاثنيات مخطوطة روايته «الدفاع» لنشرها

فى مـجلة «وثائق مـعـاصـرة» ودفـع المقـابل المادى لهـا دون الإطلاع عليها. وأثناء زيارته الأولى لباريس تولت زوجة فوندا منسكى بيع تذاكر حضور ندوته الأدبية كما أنها قامت بنسخ جزء من روايتـه «البـأس» على الآلة الكاتبـة وعن طريق عائلة فـوندا منسكى تعـرف مـؤلفنا بألكسندر كـرينسكى رئيس الحكومة الروسية المؤقتة التى سبقت مباشرة اندلاع الثورة البلشفية كما أنه تعرف على عدد كبير من الكتاب والمؤلفين الروس المهاجرين الذين لم يسبق له التـعرف بهم ومن بينهم تيفى مؤلفة القصص القصيرة والروائى سيرجى شاوتشوف والشاعر اناتولى شيتجر الذى راق لمؤلفنا شخصه ولم يرق له شعره. وأيضا تعرف مؤلفنا على الشاعرة مارينا تسفتيفا فى باريس وعلى شاعر يهودى موهوب يدعى دوفيد كنوت الذى انتهى به الأمر إلى الهجرة إلى إسرائيل حيث صار شاعرا عبريا. كما تعرف عن طريق عائلة فوندا منسكى على الشاعرة الروسية الأم ماريا التى هلكت فى أحد معسكرات الاعتقال النازية إلى جانب تعرفه بواحد من ألد أعداء النظام البلشفى هو نيكولاى برديبف ولعل أبرز الأدباء الذين قابلهم نوباكوف لدى عائلة فوندا منسكى هم بونين وكودا سفيتش ومارك

ألدانوف الذى هاجم مؤلفنا ودعا إلى الحط من شأنه.

وبعد انتهاء نابوكوف وزوجته من زيارة براغ حيث تعيش أمه يسرت لها الظروف قضاء إجازة طويلة فى منتجعات كان وجنوب فرنسا. وساعد على ذلك حصوله من الولايات المتحدة على مكافأة مجزية نظير ترجمة روايته «الضحك فى الظلام» وفى منتجعاته انصرف إلى التأليف وجمع الفراشات كسابق عهده. وعند عودته إلى باريس فى منتصف سبتمبر عام ١٩٣٨ احتفظ بمجموعة الفراشات والطحالب التى اصطادها فى فاترينة خاصة أرسلها إلى شقة فوندا منسكى فى باريس للاحتفاظ بها . وبينما كان مؤلفنا فى منتجعه فى الريفييرا أبلغته السلطات الفرنسية أنها تسمح له بالبقاء فى فرنسا ولكن بدون الحصول على تصريح عمل. وشاركه العيش فى باريس أديبان روسيان آخران هما نيكولاى افرينوف والكسى ريمزوف الذى اعتبره جيمس جويس واحدا من أهم الكتاب الروس المهاجرين على عكس نابوكوف الذى لم يحسن الظن بأدبه .

والجدير بالذكر أن مؤلفنا كتب عام ١٩٣٨ مسرحية بعنوان «الحادثة» تضمنت المنازعات والمشاجرات التى نشبت

بين المهاجرين الروس، وتم تقديمها فى عدد من العواصم مثل براغ ووارسو وبلجراد ونيويورك والجدير بالذكر أن أحوال مؤلفنا المالية تحسنت بوضوح فى عام ١٩٣٨ و ١٩٣٩ ليس بسبب ما حصل عليه من مكافآت مالية من دور النشر فحسب بل من استئناف ممارساته القديمة فى إعطاء بعض الدروس الخصوصية . وفى فرنسا شعر مؤلفنا بالرغبة فى الإحاطة بالأدب والفكر الفرنسي فقرأ كتابات جابرييل مارسيل المتخصصة فى الفيلسوف كيركجارد وبسبب اتقانه للغة الفرنسية توفر فى الفترة من ١٩٣٧ إلى ١٩٣٩ على ترجمة شعر بوشكين من الروسية إلى الفرنسية.

وسافر نابوكوف إلى بروكسل حيث توطدت علاقته بالكاتب البلجيكى - الفرنسى فرانز هيلينز بسبب إعجاب مؤلفنا بروايته «عن الله» (١٩٢٥) وبسبب تشابه آرائهما. وكذلك تعرف نابوكوف في باريس على الكاتب جول سوبرفيل وترجم بعض أشعاره إلى اللغة الروسية. ولكنه لم يتعرف على الأديب الفرنسى الكبير جان كوكتو رغم أن أخاه سيرجى كان على علاقة ودية للغاية به . ورغم شدة إتقان مؤلفنا للغة الفرنسية فقد كان إتقانه للإنجليزية يفوق إتقانه للفرنسية، وفى باريس

قضى مؤلفنا ما يقرب من ثلاثة أعوام ونصف ولكنه كان يشعر بأن الحياة بين المهاجرين الروس فى برلين أمتع بكثير من حياته فى باريس حيث عاش فى عوز وحاجة فى الفترة الأخيرة من إقامته فيها الأمر الذى اضطره إلى الاستدانة. وتقدم بعض المعجبين به إلى مساعدته بسخاء فأعطاه راشانينوف ألفين وخمسمائة فرنك دون أن ينتظر منه ردها .

وعندما رأى نابوكوف نذر الحرب العالمية الثانية تلوح فى الأفق قرر الرحيل عن فرنسا . وقبل أن يشد رحاله ذهب إلى بيت ايفان بونين لتوديعه فوجد عنده الأديبة زيفايدا جيبوس وزوجها ديمترى ميريزكوفسكى اللذين انتقدا أدب نابوكوف . ورغم ذلك فقد أظهر لها مؤلفنا الود. وفيما بعد غيرت زيفايدا جيبوس رأيها السيىء فيه واعترفت بموهبته الأدبية .

ومن جانبه اعتبر نابوكوف بعض قصائد جيبوس درة فى تاج الأدب الروسى وأثناء زيارته لوداع بونين سألته زيفايدا جيبوس عن السبب الذى جعله يتخذ قراره بمغادرة فرنسا والرحيل إلى أمريكا فأجابها بأن القوات النازية فى طريقها إلى اجتياح باريس ثم استقل نابوكوف وزوجته الباخرة تشايلين المبحرة إلى أمريكا وبعد وصوله إلى مدينة نيويورك

بأيام قلائل نشر اسكتشاً فلسفيا موجزا بعنوان «تعريفات» في صحيفة «الكلمة الروسية الجديدة» التي يصدرها المهاجرون الروس هناك وفي هذا الاسكتش القصير غفر نابوكوف لفرنسا ضعفها وتفككها وسرعة استسلامها أمام القوات النازية وأضاف أن فرنسا هي البلد الوحيد الذي يسهل فيها على الروسي أن يتذكر وطنه الضائع . وهو ما عبر عنه في قصيدته الطويلة التي نظمها عام ١٩٤٣ بعنوان «قصيدة باريسية» والتي رأت طريقها إلى النشر في العام التالي. وأيضا في «تعريفات» نراه يشيد بحيوية أدب المهاجرين الروس المكتوب في أوروبا حيث تمتع الأدباء الروس المهاجرون بحرية لا تتوفر لهم في بلدهم الأصلي ، وتوصل نابوكوف إلى حقيقة تاريخية مفادها أن الأدباء الروس المهاجرين في أوروبا استطاعوا التجمع بفاعلية ليس لها نظير في الولايات المتحدة. وفي أوروبا التي عاش فيها مؤلفنا عشرين عاما أحجم المهاجرون الروس عن الانصهار فيها وعن تعلم لغاتها . ورغم أن الروس هاجروا إلى كل بقاع العالم فإنهم حرصوا أشد الحرص على قراءة الصحف والمجلات الروسية الصادرة في باريس. وتأكيدا لرفض

المهاجرين الروس الانصهار فى مجتمعات المهجر نقول إن الأديب المعروف تورجنيف عاش خمسة وعشرين عاما فى باريس ليكتب روائعه الأدبية باللغة الروسية وكأن اللغة الفرنسية المحيطة به ليس لها وجود. ولهذا فإن نابوكوف من طراز مختلف ولايمثل المهاجر الروسى التقليدى فهو شديد الاتقان للغتين الإنجليزية والفرنسية. وهو إتقان حرصت عليه عائلته لدرجة أن تروتسكي وصف نابوكوف الأب بأنه رجل إنجليزى يتسم بالتكلف والاصطناع غير أن هذا لايعنى مطلقا أن حبه للغة الروسية قد تبخر .

وعندما وطئت أقدام نابوكوف الأراضى الأمريكية كان يحمل معه مخطوطة أولى رواياته الأمريكية وهى بعنوان «الحياة الحقيقية لسباستيان نايت» التى كان قد بدأها عام ١٩٣٦ كما حمل معه الأوراق التى استعان بها فى إلقاء محاضرته الإنجليزية بجامعة ستانفورد الأمريكية وخلاصة القول إن حقائبه وأمتعته التى أخذها معه من أوروبا إلى الولايات المتحدة حملت فى أحشائها جنين المرحلة الأمريكية من حياة مؤلفنا .

(٤)

عندما رست الباخرة شامبلين فى ميناء نيويورك فى ٢٨ مايو ١٩٤٠ وعلى متنها فلاديمير نابوكوف لم يكن هناك صحفى واحد فى انتظار وصوله في حين أن حشدا كبيرا من الصحفيين كان في انتظاره بعد مضى ما يقرب من عشرين عاما بعد نشر روايته الذائعة الصيت «لوليتا» التى تدور حول هيام رجل فى منتصف العمر بفتاة مراهقة فى عمر ابنته وتركت أمريكا التى أمضى فيها قرابة العشرين عاما انطباعا حسنا لديه منذ البداية ووقف مؤلفنا فى حيرة وارتباك أمام موظفى الجمارك الأمريكية عندما عجز عن فتح صندوق متاعه المعدنى الذى كان قد جاء به من بترو جراد بسبب ضياع المفاتيح. ولم ينته ارتباكه إلا عندما تقدم شيال لفتح الصندوق المعدنى بطفاشة وأخذ الشيال يعبث بأقفال الصندوق مما أدى إلى انغلاقه مرة أخرى. وأخيرا وبعد لأى نجح الشيال

فى إعادة فتح الصندوق فرأى موظف الجمارك بداخله قفازين للملاكمة فوق محتوياته كان ابنه ديمترى يتدرب على استخدامهما مما جعل رجال الجمارك يمرحون ويتراقصون وبعد انتهاء إجراءات الجمرك استقل سيارة أجرة لنقله إلى شقته.

ونظر مؤلفنا إلى عداد التاكسى فظن أنه سجل تسعين دولاراً فى حين أنه لم يسجل سوى تسعة دولارات فارتج عليه ودق قلبه بشدة بين ضلوعه فقد كان كل ما يملكه من مال لايزيد على ورقة بمائة دولار . وعندما تسلم السائق هذه الورقة المالية الكبيرة التفت إلى فيرا زوجته قائلا: إنه لو كان يملك مثل هذا المبلغ لما اشتغل سائق تاكسى، ومن حسن حظ مؤلفنا أنه كانت تربطه علاقات صداقة وود ببعض المعارف والأصدقاء المهاجرين إلى أمريكا ومن بينهم تويم الذى يعتبر واحدا من أفضل المترجمين لأدب بوشكين. وأخيرا تقابل نابوكوف مع رحمانينوف الذى ساعده فى شراء تذكرة سفر بالباخرة من أوروبا إلى أمريكا وأيضا كان أولدانوف واحدا من أبرز الكتاب الروس الذين هاجروا إلى أمريكا ولكنه لم يبق فيها طويلا حيث إنه آثر العودة إلى أوروبا . وأسس هذا

الرجل في فترة وجوده في نيويورك فصلية بعنوان «المجلة الجديدة» عام ١٩٤٢ بلغ توزيعها نحو الخمسمائة نسخة ومن المؤسف أنه اختفت من حياة الروس المقيمين في نيويورك تلك المنتديات الأدبية التي كان المثقفون الروس يحرصون على ارتيادها. ومنذ بداية هجرته إلى أمريكا وجد نابوكوف نفسه يخالط الأمريكان أكثر مما يخالط بني جلدته الروس طوال فترة العقدين اللذين عاشهما، هناك وفي بداية هجرته نزل نابوكوف وعائلته لفترة قصيرة ضيوفا على نافالي قريبته. وذلك قبل أن يجد سكنا مستقلا. وفيما بعد دعاهما البروفيسور مايكل كاربوفتش الذي سبق أن قابله في باريس عند عائلة فوندا منسكي والذي أصبح بعد هجرته إلى أمريكا استاذا للتاريخ الروسي في جامعة هارفارد إلى قضاء بعض الوقت في بيته في مصيف فيرمونت حيث أمضت عائلة نابوكوف صيفي عامي ١٩٤٠ و ١٩٤٢ . وقد أصبح هذا المنتجع الصيفي محطا لعدد من الضيوف الروس المهاجرين وهو ما يسجله مؤلفنا في رواية «بنين» وبعد عودة مؤلفنا من مصيف فيرمونت إلى نيويورك تقدم لشغل وظيفة رئيس القسم الروسي في إذاعة صوت أمريكا ولكن هذه الإذاعة رفضت

تعيينه لأنه أخطأ في كتابة سنة ميلاده على النحو الصحيح. ومن المفارقة أن يفوز بهذه الوظيفة ابن عمه نيكولاى نابوكوف.

تعرف مؤلفنا في أمريكا بالناقد المعروف ادموند ويلسون الذى عمل آنذاك محررا أدبيا لصحيفة «الجمهورية الجديدة» وقد لعب ويلسون دورا حاسما في تحديد مساره ككاتب باللغة الإنجليزية فقد دعاه إلى كتابة سلسلة لمراجعات الكتب في الصحيفة التي يعمل بها نظير اثنى عشر دولارا للمقال الواحد. فضلا عن أنه تلقى مبلغا أكبر من هذا بقليل نظير مراجعات مماثلة لكتب نشرها في صحيفة «ذى نيويورك صن» وأيضا كلفه معهد التعليم الدولي بإلقاء بعض المحاضرات عن الأدب الروسى نظير مكافآت مالية . وفي عام ١٩٤١ ألقى محاضرة في جامعة ولسلى التي استمر يحاضر فيها لمدة سبعة أعوام.

ورغم ضائقته المالية في البداية فإنه استمتع بالحياة الأمريكية، وعند وصوله إلى أمريكا حذرته الكسندرا تولستوى في ضحالة الأمريكان الثقافية ومن غفلتهم وتصديقهم لكل ما يقال لهم وحين تعرف باستاذة تباشر التدريس في جامعة

كولومبيا أعجبت برقى لغته الروسية واستهجنت اللغة الروسية التى يستخدمها المهاجرون الروس قائلة له : «كل ما يسمعه المرء هنا هو لغة الأوباش، فيالروعة وأرستقراطية لغتك».

وفى مايو ١٩٤١ كتب نابوكوف إلى صديقه جورج هسن الذى وجد صعوبة كبأداء فى دخول أمريكا إن أمريكا، بلد مثقف ومتنوع للغاية . وأكد لجورج هسن أنه سينجح لو اقتصر فى تعامله على أهل البلد وتحاشى المهاجرين الروس. هذه الكلمات تعبر تعبيرا صادقا عن السياسة التى اتبعها خلال هجرته إلى أمريكا.

فى شتاء عام ١٩٤٠ انكب نابوكوف بكل همة ونشاط على إجراء البخوث الخاصة بالحشرات وانصرف إلى البحث فى متحف التاريخ الطبيعى فى نيويورك حيث قام بتصنيف الفراشات وانتهى بإعداد بحثين عنها فى العام التالى كما أنه قام باعداد رسوم للحشرات باعها لقاء بعض المال لمتحف الحشرات. ونشأت علاقة ودية بينه وبين العاملين فى هذا المتحف. وفى أحد الأيام تصادف أن زار المتحف عقب حادثة سرقة لبعض المجوهرات فى نفس الضاحية وشك فى أمره حراس المتحف المدججون بالسلاح وكادوا يلقوا القبض عليه

لولا تدخل معارفه لدى موظفى المتحف .

وبسبب اهتمامه الشديد بعلم الحشرات ألحقه المسئولون عن المتحف بعمل إضافى در عليه شيئا من الدخل وقام الدكتور بانكس بزيارته بعد أن اطلع على مقاله عن الحشرات الذى كان قد نشره فى القرم عام ١٩١٩ وبفضل اهتمامه بعلم الحشرات ومعرفته بعدد من المشتغلين فى المتاحف الخاصة بها تمكن فى يسر وسهولة بالغة من الحصول على منحة من مؤسسة جوجنهايم تطلبت منه أن يجوب فى أرجاء أمريكا بحثا عن الفراش الجديد ولكن لم يكن لديه سيارة أو يعرف القيادة وشاءت ظروفه أن يقابل فى أحد الأيام امرأة أمريكية عازبة تتعلم اللغة الروسية تدعى دوروثى وتطوعت هذه الأمريكية العازبة بوضع سيارتها البونتياك الجديدة تماما تحت تصرفه وأن تقودها له فى رحلته وفى غدواته وروحاته نظير أن يعلمها المزيد من اللغة الروسية وخاصة كل ألفاظ الشتائم .

بل إنها أثناء الرحلة دلته على أنسب الأماكن لاصطياد الفراشات فى منطقة اريزونا حيث تمكن من اصطياد نوع جديد من الفراش أسماه باسم دوروثى تلميذته الغريبة

الأطوار التى تجشمت كل هذا العناء من أجل تحسين لغتها الروسية. ثم اطلق أسماء عائلة نابوكوف على عدد آخر من الفراشات التى نجح فى الإمساك بها على مدار السنين وبسبب تنقله الدائم من فندق صغير إلى فندق صغير ومن موتيل إلى آخر لم يعرف ابنه الصغير عنوانا دائما له فكان إذا سأله سائل عن مكان سكنه يرد عليه بقوله فى بيوت صغيرة بجوار الطريق.

ثم التحق نابوكوف بجامعة سنانفوردكى يتعلم فن الكتابة ليصبح فيما بعد أستاذا فيها لهذا الفن ولم يكن يعلم طلبته برنامجا دراسيا محددا بل كان يقرأ عليهم نص روايته الإنجليزية «الحياة الحقيقة لسباستيان نايت» ثم يعلق على الأجزاء التى قرأها. وكأستاذ ملك نابوكوف على تلاميذه حواسهم وظلوا مشدودين إلى هذا الأجنبى الذى يحدثهم بلغة إنجليزية لاتشوبها شائبة عن تجربته فى الكتابة والخلق الأدبى. وكان يشجع تلاميذه على الكتابة ويستقبل محاولاتهم بصدر رحب ويعلق عليها دون سخرية أو تقريع. وأحيانا كان يعجز عن فهم ما يريد بعض طلبته التعبير عنه فيستفسر من بقية الفصل لاستجلاء ما استعصى عليه فهمه، وأيضا سعى

نابوكوف إلى الاقتراب من تلاميذه فدعاهم إلى تناول الشاى مع عائلته على الطريقة الروسية.

وتقاضى نابوكوف عن التدريس لمدة شهرين في جامعة سانفورد مبلغ ثمانمائة دولار ، وإلى جانب ذلك ألقى نابوكوف بجامعة ستانفورد محاضرتين عامتين عن الدراما انتقد فيهما معظم كتاب المسرح المحدثين، وقد طبعت جامعة ستانفورد هاتين المحاضرتين. وفى بالو ألتو نظم أول قصيدة له باللغة الإنجليزية على مدى عشرين عاما تقريبا، كما كان يقضى معظم أمسياته فى لعب الشطرنج مع هنرى لانز أستاذ اللغة الروسية الذى كان نابوكوف يفوز عليه دائما.

وعند عودة نابوكوف وعائلته إلى نيويورك وجد برقية في انتظاره تعرض عليه التدريس فى جامعة ولسلى فقبل هذا العرض على الفور. والجدير بالذكر أنه ألقى عام١٩٤١ مجموعة من المحاضرات يحمل بعضها العناوين التالية :

«حقائق صعبة عن القراء» و «قرن فى المنفى» و «المصير الغريب للأدب الروسى» و «الفنان والادراك السليم» و «مأساة المآسى» و «فن الكتابة» و «الرواية» و «القصة القصيرة»، إلى جانب محاضراته عن بوشكين وليرمنتوف وجوجول وتولستوي.

وقد راقت محاضرته عن فن الكتابة للحاضرين لدرجة أنهم طلبوا مد إقامته بينهم لأسبوعين آخرين، وبدا من الواضح قبل رحيله أن المسئولين في ولسلي ينوون انتدابه للتدريس فيها . وفي المحاضرات التي ألقاها في أول عام له في أمريكا بذل جهدا جهيدا في إعدادها لم يبذله من قبل لدرجة أنه توقف مؤقتا عن التأليف مكتفيا باشباع هوايته في اصطياد الفراشات. وأعد العديد من المحاضرات في آلاف الصفحات التي كان يقرأها على طلبته بطريقة مؤثرة. وبسبب براعته في إلقاء المحاضرات ظل يحاضر نحو عقدين كاملين بنجاح عظيم.

وعندما نشر مؤلفنا رواية «الحياة الحقيقية لسباستيان نايت» لم تتجاوز مكافأته عنها مائة وخمسين دولارا وهو مبلغ يقل عن المبلغ الذى سبق أن تقاضاه نظير نشر رواية «الهدية» مسلسلة في «الوثائق المعاصرة» وفي عام ١٩٥١ حدثت منازعة بين مؤلفنا وناشره حول ترجمة «الحياة الحقيقية لسباستيان نايت» إلى اللغة الفرنسية ورغم قلة المقالات والمراجعات التي كتبت عن هذه الرواية فقد استقبلها الناقد الإنجليزى والتر ألن بالاحترام الممتزج بالحماس فى

مجلة الاسبكتاتور قارن فيها بين فكاهة نابوكوف وفكاهة بيراندلو وكذلك نشرت صحيفة نيويورك هيرالد تريبيون مراجعة جاء فيها أن هذه الرواية رائعة وتحفة صغيرة تعالج عمل المخ اللاواعى. وبعد مضى بضعة أعوام امتدح الرواية كتاب كبار أمثال ارسكين كولدويل وفلانرى أوكنور وغيرهم . ويذهب البعض إلى أن هذه الرواية تتضمن جانبا من سيرة حياة مؤلفنا .

يتميز أدب نابوكوف القصصى والروائى بمحاكاة أساليب الكتاب الآخرين وتقليدهم بهدف النيل منهم وإضحاك القراء عليهم وقد اتبع مؤلفنا هذا الأسلوب بشكل أوضح عندما بدأ الكتابة باللغة الإنجليزية التى ملأها بالتورية التى لم يكن مؤلفنا يستخدمها عند الكتابة باللغة الروسية، والغريب أن حنينه إلى القراءة والكتابة باللغة الروسية لم يفارقه فى فترة هجرته إلى أمريكا التى استخدم فيها اللغة الإنجليزية وليس أدل على ذلك من شغفه بقراءة الصحف والمجلات الروسية التى شكا من وصولها المتأخر إلى أمريكا.

وفى عام ١٩٤١ ألف قصيدتين باللغة الروسية نشرهما فى «ذى نيويورك ريفيو»، وأيضاً تدل قصيدته الطويلة «الشهرة»

على شدة تأثره بباسترناك الذى راق له أدبه رغم أنه رفض الاعتراف عام ١٩٥٨ بأهمية روايته الشهيرة «الدكتور زيفاجو» ورغم إعجابه ببسترناك فقد عبر عن سخطه عليه بسبب تجاوزه لقواعد اللغة الروسية، لدرجة أنه كتب يقول إنه «أى باسترناك» قليل الإلمام باللغة الروسية. وكذلك انتقد مؤلفنا أدب الشاعر مايكوفسكى شاعر النظام البلشفى متهكما على القصيدة التى نظمها عام ١٩٤٥ بعنوان «حول رؤساء الدول».

والجدير بالذكر أن نابوكوف ألف فى عام ١٩٤٧ قصيدة باللغة الروسية بعنوان «إلى الأمير س. م . كاتشورين» ضمنها حنينه إلى العودة إلى روسيا، وموضوع الحنين إلى أرض الوطن ليس جديدا عليه فقد تناوله فى عدد من أعماله الباكرة التى سطرها فى كل من روسيا وأوروبا. ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن حنينه إلى العودة إلى روسيا لم يبارح مخيلته قط . غير أنه فى نفس الوقت سخر من دوافعه وسذاجة أحلامه ليقينه من استحالة العودة .

وفى ديسمبر عام ١٩٤١ نشر نابوكوف أول قصيدة ناضجة باللغة الإنجليزية بعنوان «الآنسة الناعمة» فى مجلة

«الشـهرية الأطلسـيـة» وهو فى هذه القـصـيـدة يودع اللغـة الروسـية التى أحـبهـا،من سـويداء قلبه الوداع الأخير والجدير بالذكـر أنه نشـر إثنتى عـشـرة قـصـيدة ثمانٍ منهـا باللغـة الانجليزية فى مجلة «الشـهرية الأطلسية» و «النيويوركر*» فى الفـترة من عـام ١٩٤١ حـتى عـام ١٩٤٧ ، وقد عـبـر صـديقـه أدانوف عن حزنه لتوقفه عن الكتابة باللغة الروسية .

والحـقيـقـة أن مـؤلفنا اقلع عن الكـتابة بلغتـه الروسـية لأنه اسـتبشـع السـتالينية مثلمـا اسـتبشـع النازية فى أوروبا . وفى صـيف عـام ١٩٤١ أرسـل نابوكوف من كاليفورنيا إلى فلاديمير زينونيـوف يطلب منه مـسـاعـدة بعض أحـبـائه فى فـرنسـا على الحصول على تأشـيرات دخـول إلى أمـريكا ، وأبلغ زيـنونيـوف مـؤلفنا خـبـرا يدعـو للأسـى مـفـاده أن النازيين قـبـضـوا على صـديقـه فـوندا فنسكى فى فـرنسـا . ورغم أن أحـوال مـولفنا المالـيـة كـانت علـى مـا يرام فى ١٩٤١ - ١٩٤٢ فـإنه شـعـر بانقـبـاض روحـه الأمر الذى جعله يكتب إلى زينونيـوف خطابا بتـاريخ ٢٣ يوليـه ١٩٤١ يقول فـيه إنه يشـعـر بالصـقيـع يغـمر روحه .

تسلم نابوكـوف عـمله فى جـامـعـة ولسلى فـى الفـصـل

الدراسى الذى بدأ فى خريف عام ١٩٤١ وراقت مدينة ولسلى له بسبب شدة هدوئها .

وبلغ راتبه السنوى من الوظيفة ثلاثة آلاف دولار وهو راتب له قيمتة آنذاك، وكما رأينا كان السبب فى حصوله على هذه الوظيفة مجاضراته الناجحة التى سبق أن ألقاها . فضلا عن أن هذه الجامعة احتفظت بمجموعة نادرة من الكتب كانت منها ترجمته عام ١٩٢٣ لرواية «أليس فى بلاد العجائب» غير أنه أحس بعدم الأمان لأن تعيينه فى ولسلى كان مؤقتا. ألقى مؤلفنا فى ولسلى ست محاضرات عامة عن الكتاب الروس خصص الثلاث الأولى لدراسة بوشكين وليرمنتوف وجوجول انتقل بعدها للمحاضرة عن تورجنيف وتولستوى وتيوتشيف وتشيكوف وأبرزت هذه المحاضرات الجوانب الغربية أو الأوروبية فى أدب كل من هؤلاء الكتاب ولهذا جاءت عناوين محاضراته كالتالى : « بوشكين ككاتب أوروبى غربى» (ألقيت فى ١ أكتوبر ١٩٤١) و «ليرمنتوف ككاتب أوروبى غربى» (ألقيت فى ٨ أكتوبر) و «جوجول ككاتب أوروبى غربى» (ألقيت فى ١٥ أكتوبر) .

وهكذا دواليك . وأيضا تناول نابوكوف فى عامه الأول

بجامعة ولسلى الشاعرين ستيفن بنيت وجون هـ. فنلى الأستاذ بجامعة هارفارد، إلى جانب إلقائه بعض المحاضرات غير المهمة عن الزواج وغيره من الموضوعات، وبفضل هذه المحاضرات استطاع مؤلفنا أن يجذب إليه عددا من المعجبين - المريدين وبالإضافة إلى هذه المحاضرات فى الأدب الروسى تكرر توجيه الدعوة إليه لمراجعة بعض الكتب وإلقاء المحاضرات فى قسمى اللغة الفرنسية والإنجليزية بالجامعة - وفى ولسلى توثقت علاقته الودية مع زميل له هو الشاعر الإسبانى جورج جويلين الذى كان منفيا من إسبانيا بسبب مناهضته للدكتاتور فرانكو وكانت علاقته الودية بهذا الشاعر الإسبانى سببا فى إعداد بعض المحاضرات التى ألقاها فى قسم اللغة الإسبانية عن المؤثرات الإسبانية فى الأدب الروسى. ولأن محاضراته فى الفصل الدراسى الأول كانت عامة فإن أحدا من الطلبة لم يتتلمذ على يديه فى اللغة الروسية غير أن هذا الوضع تغير فى الفصل الدراسى الثانى فقد وجد نابوكوف طلبة وزملاء له فى الجامعة يرغبون فى تعلم اللغة الروسية على يديه .

وفى زمن الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) لم تولِ

دور العلم اللغات والعلوم الإنسانية اهتماما . غير أن نابوكوف كان محظوظا عندما أقنع المسئولين فى ولسلي عام ١٩٤٤ بجدوى تعليم مبادئ اللغة الروسية للراغبين من الطلبة لمدة ست ساعات فى الأسبوع الأمر الذى أغراهم بمواصلة دراستهم لهذه اللغة فى العام التالى. ولكن مسئوليات التدريس لم تشغل مؤلفنا مطلقا عن عمله الإضافى في متحف علم الأحياء المقارن فى جامعة هارفارد وتضاعف عدد مريديه فى أقسام اللغات الفرنسية والإيطالية والألمانية والإسبانية فأرسلوا التماسا ببقائه فى جامعة ولسلي. وقد سجل لأحد تلاميذه في مجلة «نحن» (المجلد١ ، العدد ٢، ديسمبر ١٩٤٣) طريقته فى تدريس اللغة الروسية فقال إنها طريقة تروى ظمأه وحنينه للعودة إلى موسكو. وذاع صيته فى جامعة ولسلى لدرجة أن مجلة «مدموازيل» نشرت مقالا عنه في عددها الصادر فى سبتمبر ١٩٤٧ كما بلغ اعجاب أحد طلبته به جداً جعله يعلن أنه سوف يؤلف كتابا عنه، ولم يلتفت مريدوه إلى ثيابه الرثة وإلى ما فيها من رقع كثيرة بسبب قدرته الهائلة على تنشيط أذهانهم ونشرت طالبة معجبة به اسكتشا عنه كمدرس فى صحيفة «النيويوركر» ذكرت فيه أنها وبعض

صديقاتها طلبن منه أن يعيد على مسامعهن نفس المحاضرة ويبدو أن طالباته كن يغازلنه بسبب لطفه الشديد معهن .

ورغم انصرافه فى أمريكا إلى الكتابة باللغة الإنجليزية فإنه شعر بأنها لغة غريبة عنه واستبد به الحنين إلى الكتابة باللغة الروسية. وحتى قبل أن يكمل روايته الإنجليزية «الانحناء الشرير» كتب إلى أولدانوف يقول إنه لايستبعد أن يعود إلى التأليف باللغة الروسية واصفا اللغة الإنجليزية بأنها وهم زائف. وفى خلال الفترة التى قضاها مؤلفنا فى ولسلى والتى انصرف فيها إلى الكتابة باللغة الإنجليزية نرى أن كتاباته آنذاك دارت بشكل أو آخر حول روسيا والأدب الروسى.

وفى جولته التى قام بها فى خريف ١٩٤٢ متنقلا بين دور العلم المختلفة توقف فى كلية ويلز حيث كان ابن عمه نيكولاى يحاضر ثم سافر إلى حدود فلوريدا فى الجنوب وتوجه بعدها إلى الينوى ومنسوتا فى الشمال. واعتاد السفر ليلا بالقطار ولكن رجرجة القطار واهتزازه جعله لاينعم بنوم هادئ .

وفى ٣ أكتوبر من العام المشار إليه (١٩٤٢) توقف فى مدينة فلورنسا بجنوب كارولينا حيث أقلته سيارة منتظرة إلى

كلية كوكر للبنات فى هارتسفيل حيث كانت حرارة الشمس فى شهر أكتوبر حارقة وهناك تأخر وصول القطار الذى يقله ساعة بأكملها فلم يجد من ينتظره بالمحطة فاتصل بكلية كوكر التى وعدت بإرسال سيارة إليه وانتظر السيارة فى مقهى المحطة ساعة ونصف دون أن تصل، فتضايق لأنه كان متعبا ومحتاجا لحلاقة ذقنه والاستحمام وأخيرا دق تليفون مقهى المحطة ليخبره أستاذ اللاهوت فى كلية كوك (الذى تصادف وجوده فى مدينة فلورنسا لقضاء بعض أغراضه الشخصية) أنه سوف يمر عليه فى المقهى فى غضون ثلاث ساعات لتوصيله إلى هارتسفيل ولكن مؤلفنا تضجر وشكا من التعب فوعده أستاذ اللاهوت بإرسال تاكسى لنقله إلى فندق يمكنه أن يستريح فيه وطال انتظار مؤلفنا ولكن التاكسى الموعود لم يحضر لأنه عمل حادثة فى الطريق إليه وأخيرا حضر تاكسى آخر لنقله إلى الفندق حيث حضر أستاذ اللاهوت ليستأذن فى استكمال مشاويره . وهكذا تأخر نابوكوف فى الوصول إلى هارتسفيل حتى الساعة السادسة والربع قبيل تناول العشاء وأزف وقت محاضرته فذهب إلى الحلاق المحلى لحلاقة ذقنه على عجل فوجد فى الكرسى المجاور طفلا علا صراخه بطريقة

مزعجة أثناء قيام الحلاق بقص شعره . ولسوء حظ مؤلفنا كان زميل الحلاق عجوزا عصبى الطباع . وما إن تولى حلاقة ذقن نابوكوف حتى أصابه بجرح فى رقبته وأسفل ذقنه. وأخيرا حضر أستاذ اللاهوت فى الموعد المحدد ليصطحب نابوكوف فى سيارته . ولكن امرأة نحيفة استوقفته على الطريق ظناً منها أنها تستوقف تاكسى . ودعاها أستاذ اللاهوت إلى الركوب واتضح فى الكلام أن هذه المرأة كانت تخشى أن تتأخر عن حضور المحاضرة التى سوف يلقيها المحاضر الروسى (أى نابوكوف) فى هارتسفيل . ودارت بين الراكبين الثلاثة مناقشة حامية الوطيس حول المسيحية والحرب . ووصل الركب إلى عزبة الماجور كوكر مؤسس الكلية قبل بدء العشاء بنحو عشر دقائق. وأخذ نابوكوف حماما على عجل وعندما بدأ فى ارتداء ملابسه اتضح له أن كم قيمصه ملىء بالنشا مما أدى إلى سقوط الزرار. الأمر الذى اضطره إلى تشمير ساعده . واعتذر نابوكوف للحاضرين عن بهدلة منظره . فتقدمت سيدة فى الحال لإصلاح الكم وتحسين مظهره المبهدل . وسارت محاضراته على ما يرام . ولم يصرفه نجاح محاضراته عن هوايته فى

اصطياد الفراشات في ريف الجنوب الأمريكي بصحبة قسيس ينتمي الى الطائفة البرسبتيرية وابن عالم حشرات كان مؤلفنا مطلعاً جيدا على أبحاثه. وإلى جانب ذلك مارس نابوكوف رياضة التنس . ووجد مؤلفنا كرم ضيافة عظيما من جانب عائلة الماجور كوكر الواسعة الثراء والتى امتلكت نصف ضياع هارتسفيل .. وكان من المفترض أن يذهب مؤلفنا إلى ريتشموند كي يحاضر فيها . ولكن فرض الاظلام عليها بسبب ظروف الحرب العالمية الثانية أدى الى إلغاء محاضراته . ولهذا أرسله منظم جولته التعليمية إلى كلية بديلة هي كلية سبلمان في أتلانتا للنساء السوداوات اللاتي استقبلنه بترحاب كبير وفوجيء نابوكوف بالمسئولين في كلية سبلمان ينفحونه مكافأة مالية مجزية .

ألقى نابوكوف في سبلمان أولى محاضراته عن الشاعر بوشكين أمام جمهور من السود وركز على جذور هذا الشاعر الحبشية الأمر الذي أثار حماسا شديدا لدى الحاضرين والحاضرات وكانت رئيسة الجامعة سيدة سوداء تدعى الآنسة ريد نشأت بينها وبين فلاديمير نابوكوف علاقة ود عظيم . وسهرت هذه السيدة السوداء على راحته وكان

مؤلفنا يتناول الفطور كل يوم معها ويتناقشان في مشكلة الزنوج وقراءة الأفكار . ورغم عدم تدينه كانت مس ريد تجرْه جرا لحضور ترانيم التلميذات في كنيسة المدرسة . وعبثاً حاول مؤلفنا الاعتذار عن عدم الحضور بأنه إنسان مهرطق لا يحب سماع الموسيقى ولكن مس ريد أكدت أن الترانيم سوف تروق له . وصلت الحاضرات شاكرات الله لأنه أنعم عليهن بالشعراء الذين يمتعون الناس ويسعدونهم بأشعارهم . واستجاب مؤلفنا لهذا الترحيب الحار بقراءة بعض ترجمات لقصائد روسية كلاسيكية . وبهذه المناسبة نشرت مجلة سبلمان التى أصدرتها الكلية فى نوفمبر ١٩٤٢ مقالا طويلا عن محاضراته وقراءاته الشهرية . وتنبأ المقال بأن نابوكوف سوف يكون له شأن عظيم فى عالم الأدب . وشعرت مضيفته المس ريد بأنه يحتاج الى الخلو الى نفسه أحياناً فسعت الى تحقيق ذلك الأمر الذى مكنه من تأليف كتاب كامل عن جوجول قام بمراجعته الأديب المعروف ادموند ويلسون . اضطر نابوكوف الى قطع جولته لإلقاء المحاضرات بسبب ما أصابه من تعب وإرهاق . ورغم أنه بدأ رحلته موفور الصحة والعافية فإنه فى نهايتها أخذ

يشعر بآلام شديدة فى قفصه الصدرى وآلام التهاب الأعصاب . واجتذبت محاضرته فى كلية ماكالستر فى سانت بول بولاية مينسوتا أكبر جمهور جاء للاستماع إليه لأن مقالا مغلوطا نشرته الصحف وصفه بأنه كاتب سوفيتى مشهور وصديق شخصى لجوزيف ستالين. وبلغ عدد الحاضرين لهذه المحاضرة التى ألقيت فى ١٠ نوفمبر تسعمائة شخص كما أن هذه المحاضرة أذيعت فى الراديو. وبلغ عدد الكليات الأمريكية التى حاضر فيها نابوكوف نحو ثلاثين كلية غير أنه تعب فى التجوال لإلقاء المحاضرات فقبل العمل فى جامعة كورنيل .

وأيضا دعته جامعة بيل للمحاضرة فيها . وفى جامعة دارتموث شرب نابوكوف مقلباً لا ينسى لأن الأستاذ المكلف بدعوته كان كثير النسيان فنسى تماما الإعلان عن محاضرة نابوكوف في تلك الجامعة . فكانت النتيجة أنه لم يحضر محاضرته سوى ثمانية أشخاص تم جمعهم من الأروقة وإجبارهم على حضور المحاضرة والجدير بالذكر أنه كان من وقت لآخر يلقى بعض المحاضرات عن الفراشات.

وقرب نهاية الحرب العالمية الثانية (عام ١٩٤٤) خطر له أن يتطوع في الجيش الأمريكي لمحاربة النازية ولكن هذا الجيش رفض انضمامه إليه لتقدمه في العمر، فقد كان آنذاك في الخامسة والأربعين من عمره ونصحه بالتروى .

كان نابوكوف في شبابه يعاني على فترات متباعدة من التهاب الأعصاب . الأمر الذى اضطره الى دخول المستشفى للعلاج في كل من ألمانيا وفرنسا . كما كانت تنتابه من وقت لآخر نوبات صداع متكررة لا تجدى معها الأقراص المخففة للألم . فضلا عن أنه عانى من خفقان كثيرا ما أصاب قلبه . وسببت له هذه المشكلات الصحية تعقيدات في عام ١٩٥١ حين خضع للفحص الطبى توطئة لتعيينه في عام ١٩٥٢ أستاذا زائرا في جامعة هارفارد . وإلى جانب ذلك عانى من متاعب الأسنان ومضاعفات التدخين . ولولا ممارسته للرياضة للعبة التنس لساءت أحواله الصحية أكثر وأكثر . غير أن صحته تحسنت بعد إقلاعه عن التدخين .

وبوجه عام يمكن القول أن مؤلفنا أشاح بوجهه عن السياسة كما أنه لم يظهر اهتماما في أدبه بالحرب العالمية

الثانية إلا قرب نهايتها فى عام ١٩٤٥ عندما ألف قصتين قصيرتين عن هذه الحرب إحداهما «مساعد المخرج» و«حدث مزدوج» .. ألف نابوكوف «الإنحناء الشرير» عام ١٩٤٥ - ١٩٤٦ ورأت طريقها إلى النشر عام ١٩٤٧ . ويعترف مؤلفنا بوجود ثمة صلة تربط بين رواية «الإنحناء الشرير» ورواية ««دعوة إلى قطع الرأس» وتدور «الإنحناء الشرير» حول إقامة نظام ديكتاتورى فى دولة من نسج الخيال وتضييق الخناق على أكبر مفكر فيها الفيلسوف آدم كروج وتحتوى هذه الرواية على شذرات من خطب لينين وسخرية من الادعاء بكفاءة النظام الفاشى كما أن الرواية تتضمن جزءا من الدستور السوفيتى . ويذهب الناقد فرنك كيرمود الى تأثر «الإنحناء الشرير» برواية «ترمستدام شاندى» التى ألفها الروائى الإنجليزى لورانس ستيرن . والجدير بالذكر أن مؤلفنا الذى هاجم عام ١٩٥٩ معظم الروائيين الانجليز البارزين فى القرن الثانى عشر عبر عن إعجابه بأدب ستيرن الروائى . ويرى النقاد فى «الإنحناء الشرير» ملأى بالعيون التى أوردتها ديانا تريلنج فى مقالها المنشور فى مجلة «الأمة» ومن مثالب هذه الرواية عدم

فاعلية هجومها على المذاهب الشمولية على عكس رواية أورويل «١٩٨٤» ورواية كيستلر «الظلام فى عز الظهر» .

وفى فترة عمله بجامعة «ولسلى» كتب اثنين من أهم أعماله هما «سيرته الذاتية» وقصيدة طويلة باللغة الانجليزية بعنوان «أمسية الشعر الروسى» . وفى عام ١٩٢٣ نشر مؤلفنا في صحيفة «الشهرية الأطلسية» الجزء الأول من سيرة حياته باللغة الانجليزية تحت عنوان «مدموازيل أو» . فى يناير ١٩٤٨ بدأت صحيفة النيويوركر فى نشر أجزء أخرى من سيرة حياته استمرت حتى عام ١٩٥٠ . فضلا عن أنه نشر المزيد من هذه الأجزاء في مجلتى «هاربرز» و«بارتيزان ديفيو» . ولكن هذه الكتابات لم تدر عليه دخلا كبيرا آنذاك. واستنفدت دخله المحدود مصروفات تعليم ابنه في مدرسة خاصة واعداد الرحلات كل صيف بهدف اصطياد الفراشات . والجدير بالذكر أنه كتب سيرة حياته بطريقة لا تمكن القارئ من التعرف على هوية شخصياته باستثناء كتاباته المفصلة عن أمه وعاداتها ومزاجها وأسلوب تربيتها لأطفالها . ولكنه كان متحفظاً فى الكلام عن أبيه رغم شدة حبه له . فضلا عن أنه كتب عن الفراش

باستفاضة . وقد بلغ عشقه للفراش مبلغا جعله يتصور نفسه بعد الموت عالماً محلياً فى التاريخ الطبيعى يسكن الفردوس . وحتى عام ١٩٤٤ كان نابوكوف فى جولاته الصيفية قد زار ٢٣ ولاية أمريكية . وقبل رحيله من أمريكا التى قضى فيها نحو عشرين عاما كان قد زار سائر الولايات الأمريكية تقريبا . وفى عام ١٩٥٤ ظهرت مذكراته بعنوان «شواطئ أخرى» .

ولمؤلفنا باع طويل فى مجال الترجمة إلى اللغة الإنجليزية . وكانت مسرحية «بوشكين موزارت وساليرى» أول ترجماته بالاشتراك مع ادموند ويلسون . ونشرت هذه الترجمة فى عام ١٩٤٢ فى مجلة «الجمهورية الجديدة» ثم توفر على ترجمة ثلاث قصائد ضمنها من مختارات من الشعر والنثر بعنوان «توجهات جديدة» . كما ترجم عام ١٩٤٣ قصيدتين من نظم الشاعر حيث نشرهما فى «المجلة الروسية» وهى أبرز المجلات الروسية فى جميع أنحاء الولايات المتحدة . وأيضا أسهم فى «توجهات جديدة» عام ١٩٤٤ بترجمة من أهم ترجماته بعنوان «ثلاثة شعراء روس فى ترجمات لبوشكين وليرمنتوف وتيوتشيف» . وتميزت هذه

الترجمات الشعرية بمراعاة الأوزان والقوافى . وتعتبر ترجماته لبعض أعمال صديقه كوداسفتش من الروائع . وفى عام ١٩٤٥ قام نابوكوف بترجمة ثلاثة مقاطع مقفاة من رواية «ايوجين أويجن» نشرها فى «المجلة الروسية» .

كان الأديب الأمريكى ادموند ويلسون نعم الصديق لنابوكوف فقد شجعه فى سنواته الباكرة على الكتابة بانتظام فى مجلتى «الجمهورية الجديدة» و«الشهرية الأطلسية» كما سانده فى الحصول على منحة جوجنهايم . فضلا عن أنه زكاه وأوصى بتعيينه فى عدد من الجامعات الأمريكية مثل بنتجتون وييل وترستوف . والحقيقة أن ادموند كان مفتونا به كشخص وكفنان . ودفعه اعجابه الى الاستقصاء عنه من زملائه أيام الدراسة بجامعة كامبريدج الانجليزية كما استفسر عنه من ابن عمه . وتتبع ادموند ويسلون خطاه منذ البداية حيث تصادف أن اشترى كتاب شعر نادرا كان نابوكوف قد أصدره عام ١٩٢٣ . كما أنه استمتع بقراءة روايته الباكرة «مارى» . غير أن روايته «دعوة إلى قطع الرأس» لم ترق له . وكذلك طالع روايتيه المكتوبتين باللغة الانجليزية وهما «الضحك فى الظلام»

و«البأس»، وكانت أمنية ويلسون مطالعة كل أعمال نابوكوف وتأليف كتاب عنه . واقترح ويلسون الاشتراك معه فى نشر كتاب فى الأدب الروسى يضم ترجمات لنابوكوف ودراسات له (أى لويلسون) . ولكن نابوكوف اعتذر بسبب ارتباطه بنشر عدد من ترجماته فى مطبوعة «التوجهات الجديدة» وطلب منه ويسلون الانسحاب من هذا الارتباط والتعامل مع ناشر آخر ولكن نابوكوف أجل تنفيذ اقتراح ويلسون . وسعى ادموند ويلسون الى اقناع دار اكسفورد للنشر بنشر كتابهما المشترك . ولكن هذه الدار وافقت على نشر دراسات ويلسون فى الأدب الروسى ثم اعتذرت عن عدم نشر ترجمات نابوكوف الانجليزية لعيون الأدب الروسى لأسباب تجارية . وكان هذا إيذانا ببدء فتور العلاقة بين الصديقين. ولكن صداقتهما استمرت حتى أول عقد الخمسينيات .

كان نابوكوف صبيانيا فى معاكساته ومشاكساته فذات مرة كان يركب وزوجته فيرا سيارة تقودها مارى مكارثى زوجة ويلسون الذى كان يركب فى المقدمة بجانبها فإذا بيد تمتد من الخلف هى يد مؤلفنا ليخلع قبعة ويلسون ويقذف

بها مع الريح . فالتفت ويلسون إلى زوجة نابوكوف ليقول لها : «إن دعابة زوجك من نوع غريب» وأحيانا كان نابوكوف يضايق صديقه ويلسون من غير قصد . ففي أحد الأيام ذهب نابوكوف وزوجته دون سابق موعد إلى منزل ويلسون فوجده يتشاجر مع زوجته ويتأهب للانفصال عنها . وهم نابوكوف بدخول البيت وهو يحاول تهدئة ثائرته قائلا لويسلون : «لا تهتم فالأمر عديم الأهمية، إننا لن نمكث عندك غير دقائق معدودة»، ولكن ويلسون رد عليه محتدا : «الحقيقة الأمر مهم ، ثم اتهم صديقه بأنه لن يسمح له بالدخول . وقد حدثت حادثة مشابهة في فترة اقامة نابوكوف في نيويورك فقد وصل مؤلفنا الى منزل صديقه في غير الوقت المتفق عليه . فارتج على ويلسون وشعر بحرج شديد لأنه كان يخفي عشيقته في «حجرة النوم» .

عندما قابل ويلسون مؤلفنا لأول مرة كان الأول قد أصدر لتوه كتابه «إلى محطة فنلندا» . وأهداه ويلسون نسخة من هذا الكتاب كتب عليها الاهداء التالي : «الى فلاديمير نابوكوف على أمل أن يجعله يحسن الظن أكثر بلينين» ولا غرو فقد كان ادموند ويلسون شديد الاعجاب

بلينين . وأرسل نابوكوف خطابا طويلا الى ويلسون شرح
فيه بالتفصيل سوء فهم المؤلف لشخصية لينين كإنسان
وسياسي . ولكن ويلسون استمسك بدفاعه عن لينين . يقول
مؤلفنا عن خلافاته فى الرأى والمناقشات المحتدمة مع
صديقه ويلسون إنها بدت وكأنها انهكت ويلسون وأسكتته .
ولكن نابوكوف كان يفاجأ بويلسون فى اليوم التالى يطرح
عليه بكل حيوية ونشاط محاجات جديدة وكأنه لم يناقش
الأمر بالمرة قبل ذلك، حمل مابوكوف الإعجاب بصديقه
ويلسون بسبب معرفة الأخير العميقة ببدايات الأدب
الأمريكى . واستفاد نابوكوف من معرفة صديقه الواسعة
بالأدبين الانجليزى والأمريكى . وبناء على نصيحة ويلسون
تعمق اهتمام مؤلفنا بأدب ميلفيل. فضلا عن أن ويلسون
أثار فيه الاهتمام بأدب جين أوستن الروائى وخاصة روايتها
«مانسفيل بارك» التى اختارها نابوكوف كركيزة فى المنهج
الدراسى الذى اضطلع بتدريسه فى كورنيل . وجمع بينهما
اعجابهما المشترك بـ هـ . ج . ويلز ولكن مؤلفنا ينحى على
ويسلون بشىء من اللائمة لأنه يتوهم أنه يعرف تاريخ
روسيا وأدبها أكثر من نابوكوف نفسه وأن السبب فى هذا

يرجع الى دراسته للماركسية . ومن جانبه ظل ويلسون حتى عام ١٩٤٨ يعتبر صديقه من الروس البيض المناهضين للبلشفية . وإلى جانب تبادل الخطابات كثيرا ما التقى الصديقان فى كامبريدج ونيويورك وايناكا . وكثيرا ما نزل مؤلفنا ضيفا على ويلسون فى شقته فى مدينة نيويورك حيث تعرف بآلان تيت والشاعر الامريكى روبرت لويل . وأيضا توقفت علاقة مؤلفنا ببيل جيمس – ابن فيلسوف البرجماتية الأمريكية وليم جيمس . ومن فرط اعجاب بيل بكتاباته وعد بإعطائه أحد مكاتب والده ولكنه توفى قبل أن يفعل ذلك .. وعندما أصاب المرض نابوكوف عام ١٩٤٨ مد اليه ويلسون يد العون والمساعدة فأقنع مجلة «النيويورك» بصرف معاش متواضع له حتى يبل من مرضه. بل إنه طلب من معارف وأصدقاء نابوكوف (دون علمه) إقراضه بعض المال مما سبب لمؤلفنا قدرا كبيرا من الحرج .

كان نابوكوف معتزا بكتاباته المنتظمة فى صحيفة النيويوركر التى كانت تجزل العطاء له . ورغم أنها كانت أحيانا ترفض نشر بعض كتاباته فإنه قبل ذلك عن طيب خاطر كما أنه لم يغضب عندما أقدمت هذه الصحيفة على

اجراء بعض التغييرات فيما يكتب وخاصة لأنه كتب فى «الأشياء الشفافة» ان واجب المؤلف يحتم عليه أن يقاوم بشدة اجراء أى تغيير فيما يكتب .

ورغم أن مساعدات ويلسون له كانت كثيرة وانه كان يدافع عن كتاباته ضد شانئيه فإنه عاب على نابوكوف الأخطاء اللغوية التى تشوب روايته الانجليزية «الحياة الحقيقية لسباسيتان نايت» وتفاقمت الخلافات بينها حتى وصلت إلى درجة العداء وخاصة بعد أن وجه ويلسون نقداً لاذعاً لرواية «الانحناء الشرير» . ومن الغرابة بمكان أن نرى ويلسون يسعى لدى أحد الناشرين لنشرها فى نفس الوقت الذى ينتقدها . ورغم المساعدات الجمة التى قدمها ويلسون الى مؤلفنا فإنه لم يعترف فى مقالاته بموهبته الأدبية أبدا .

وفى عام ١٩٤٨ غادرت عائلة نابوكوف ولاية ماساشوستس كى تعيش فى مدينة نيويورك . وكان البروفيسور موريس بيشوب رئيس قسم اللغات الرومانسية فى إيتاكا آنذاك يسعى إلى تعيين أستاذ يحل محل ارنست سيمون ففكر فى دعوة نابوكوف الى الانضمام الى هيئة

التدريس فى ايثاكا لأنه قرأ له وأعجب به . ولكن مؤلفنا لم يشغل آنذاك وظيفة أستاذ كامل الأستاذية ولم يزد راتبه السنوى عن خمسة آلاف وخمسين دولارا . ورغم تواضع هذا الراتب كانت وظيفته فى إيثاكا مستقرة غير أنها استهلكت كل وقته . ولم يكن هناك فى ايثاكا قسم مستقل لتدريس اللغة الروسية ولهذا كلف قسم اللغات الرومانسية بالاشراف الإدارى على تدريس هذه اللغة . ومن حسن حظه أن البروفيسور بيشوب الذى مثل هذا القسم فى مجلس الكلية كان يعمل على راحته ويهتم برعاية مصالحه . كما أنه بحث له عن مسكن يقيم فيه فى إيثاكا حيث انتهى من تأليف روايته المشهورة «لوليتا» . وكان مؤلفنا فى خلال العشرة أعوام التى أمضاها فى كلية كورنل دائم التنقل من شقة مفروشة الى أخرى . وبسبب سمعته الطيبة كساكن كان زملاؤه يتهافتون عليه لتأجير مساكنهم له . وكانت زوجته شديدة الرفق بالحيوانات الأليفة والقطط فعندما أصاب المرض قطها ذهبت به الى الطبيب البيطرى ولم يهدأ لها بال حتى تم شفاؤه . وفى عام ١٩٥٤ تصادف أن تتلمذ على يدى نابوكوف طالب واحد تخصص فى اللغة الروسية .

وكان التلميذ يذهب الى بيت أستاذه كى يتعلم على يديه قصائد بوشكين القصيرة ورواية «ايوجين اوفيجين» كما أن الأستاذ كلف تلميذه بترجمة بعض أشعار بوشكين والتعليق عليها . وأحيانا كان نابوكوف يبتعد عن المقرر الدراسى ويروى الطرائف والحكايات عن حياة بوشكين مثل قوله إن الرصاصة التى أصابت عجز بوشكين أثناء المبارزة والتى استقرت فى بطنه كان يمكن اخراجها لو أن عملية جراحية أجريت له فى وقتها فهو لم يمت بسبب الرصاصة بل بسبب الغرغرينة الناجمة عنها . وفى نهاية الدرس كانت فيرا زوجة مؤلفنا تقدم الشاى الى ضيفها . وذات مرة عنّ لهذا الطالب أن يسأل استاذه عن سبب امتناعه عن شراء منزل يقطنه، أجاب بأنه أصبح يجد غضاضة فى امتلاك أى شىء بصفة دائمة مثل العقارات لأن عائلته فقدت بين عشية وضحاها ضياعها الشاسعة نتيجة قيام الثورة البلشفية وهو لا يريد أن يتعرض مرة أخرى لمثل هذه الخسارة . غير أنه اشترى سيارة لأن المسافات الشاسعة وقلة المواصلات العامة فى إيثاكا جعلت امتلاك سيارة ضرورة لا محيص عنها . وعلى عكس زوجته التى أتقنت القيادة اعترف

نابوكوف بعدم كفاءته فى قيادة السيارات التى لم يقدها طوال حياته غير مرة كاد أن يعمل حادثة ويصطدم رغم خلو الطريق من السيارات بالسيارة اليتيمة الواقفة بمفردها فى ساحة الانتظار فى هوليود وبعد وصوله الى إيثاكا قام كاربوفتش وزوجته بزيارته . وكان بعد العملية التى أجريت له فى كامبريدج بسبب متاعب الرئة يتماثل للشفاء ببطء . فضلا عن أن وزنه أخذ يزداد بسرعة رهيبة فبعد أن كان يميل إلى النحافة أصبح وزنه يزيد على ٢١٠ أرطال ، ولكن النحافة سوف تعود إليه اثناء مرضه فى آخر أيامه .

وكأستاذ لم يكن بمقدور مؤلفنا الخروج عن المنهج الدراسى الذى يتولى تدريسه لطلبته فقد تعين عليه تدريس منهجين دراسيين باللغة الروسية وفرض عليه البروفيسور بيشوب تدريس مادة «مقدمة لدراسة الأدب» شملت سرفانتيس وثيو سديس وفولتير . وهى مادة لم يكن تدريسها يروق له الأمر الذى جعله يلجأ إلى المساومة عندما اقترحت عليه الكلية تدريس أحد المنهجين فى الأدب الروسى باللغة الانجليزية فقد استجاب إلى طلب الكلية ولكنه اشترط إعفاءه من تدريس مقرر «مقدمة لدراسة الأدب» . وفى

المتوسط كان عدد الطلبة فى جامعة كورنيل الذين يدرسون اللغة الروسية على يديه يتراوح سنويا بين الثلاثين والأربعين طالبا. فى بادىء الأمر كان مؤلفنا راضيا عن عمله بجامعة كورنيل فالمدينة هادئة بشكل غير عادى ومكتبة الجامعة زاخرة بالمراجع . غير أنه بمضى الوقت أخذ يضيق ذرعا بعمله، ففى عام ١٩٥٠ كتب إلى زميله رومان جاكسون بجامعة هارفارد الذى شاركه فى تأليف الكتب يشكو من التدريس في كورنيل بسبب تدنى مستوى الطلبة الاكاديمى وقلة عدد الطلبة الذين يدرسون اللغة الروسية وبسبب ضعف الراتب الذى يتقاضاه وطلب مؤلفنا من جاكسون مساعدته فى الالتحاق بالعمل فى جامعة أكثر اهمية من كورنيل ولكن جاكسون لم يجبه إلى طلبه. وفى غضون السنة الثالثة التى أمضاها مؤلفنا فى كورنيل انخفض عدد الطلبة الذين يحضرون مقرراته الدراسية إلى أكثر من أربعين طالبا فى عام ١٩٤٨ الى أقل من عشرين طالبا فى عام ١٩٥٠ الأمر الذى جعل جامعة كورنيل تحجم عن الاستجابة إلى طلبه بزيادة راتبه. وكتب الناقد المعروف دافيد ديتشس رئيس مجلس إدارة مؤسسة روكفلو الى

مؤلفنا يخبره أنه بإمكانه تدعيم القسم الذى يدرس فيه لو استطاع زيادة عدد الراغبين فى دراسة الرواية الأوروبية ملحا بأن هذا سوف يزيد من فرص زيادة راتبه . وبالفعل اضطلع نابوكوف بتدريس الرواية الأوروبية . وبعد أن كان تدريسه يقتصر على «مدام بوفارى» و«أنا كارنينا» وعدد كبير آخر من الروايات الروسية أصبح الآن يشتمل على ديكنز وجين اوستن وكافكا وبروست وجيمس جويس . واستطاع مؤلفنا آنذاك أن يجتذب أربعمائة طالب مما وسع رقعة شهرته . وكان يركز فى تدريسه على شىء واحد هو تشجيع طلبته على القراءة البطيئة والاستغراق الكامل فى النصوص الروائية . وأيضا كان اهتمامه بالتفاصيل سببا فى نجاح محاضراته لدرجة أن إحدى طالباته حضرت محاضراته رغم اصابتها بالحمى . وكان نابوكوف يعامل طلبته وطالباته كأخوة وأخوات له . وقد أصبح بعض تلاميذه كتابا فيما بعد مثل جوانا روس وروجر سال ودتبنى باليبت وريتشاد فارينا وتوماس بنيشون كما أصبح اثنان من طلبته (هما ستيفن باركر والفريد ابل) من الدارسين الأكاديميين المهتمين بدراسة انتاجه الأدبى الى جانب تلميذه

ماثيو بروكولى الذى نجح اخيرا فى نشر محاضرات نابوكوف الجامعية . ويلاحظ أن مؤلفنا كانت له تحفظات على تشارل ديكنز وجين اوستن فى حين أنه تحمس لأدب فلوبرت وبروست . وقد بلغ تحمسه ذروته عندما عالج أدب كافكا وجويس .

وفى العام الدراسى ١٩٥١ - ١٩٥٢ اضطر نابوكوف إلى إلغاء مقرره الدراسى فى اللغة الروسية وآدابها لأن عدد الدارسين الراغبين في دراستها انخفض إلى طالبين . وكان لزاما عليه تدريس هذا المنهج باللغة الانجليزية شريطة أن يدرس الطالب النصوص الأدبية باللغة الروسية . وهكذا ظهرت فكرة قريبة للغاية من دراسات الأدب المقارن . وكثيرا ما اعتمد تدريسه لهذا المنهج على الترجمات التى قام بها بنفسه والتى لم تر طريقها إلى النشر بل ظلت على هيئة مخطوطات احتفظت بها مكتبة الجامعة لاستخدام الطلبة . ومن بين هذه المخطوطات حكاية «ايجور» و«بطل من زماننا» و«ايوجين اوفيجين» وكان الأسلوب الذى اتبعه مؤلفنا فى تدريس الأدب الروسى تعسفيا فدراسة دستيوفسكى لم تستغرق منه أكثر من

عشر دقائق الأمر الذى دفع أحد طلبته إلى التمرد ضده إذ قال : «يا مستر نابوكوف إذا كنت تنوى ألا تتحدث عن دستيوفسكى فى المنهج الدراسى فهل تأذن لى أن أتحدث عنه لمدة ساعة ؟» ورفض نابوكوف وتعمد اسقاط الطالب فى الامتحان . وزاد ذلك من عصبيته فصاح فى حجرة الأساتذة قائلا : «إننى أريد طرد هذا الطالب ! أريد إخراجه من هذا القسم» . وهكذا تسبب موقف مؤلفنا العدائى من دستيوفسكى وعصبيته فى حرمان هذا الطالب المعترض عليه من استكمال دراسته العليا . وحدثت حادثة مشابهة عندما اقترح عليه طالب يتقن اللغة الروسية اسمه اد سموى أن يكتب رسالة تتناول أثر دستيوفسكى فإذا بنابوكوف يقول له:

دستيوفسكى ليس كاتبا مؤثرا وليس له أى تأثير بالمرة لماذا لا تدرس لينوف. فاحتج الطالب على اقتراحه. وكانت نتيجة السياسة المتعنته والمتعسفة التي استخدمها نابوكوف أن قسم اللغة الروسية في جامعة كورنيل لم يمنح درجة ماجستير أو دكتوراه واحدة فى فترة الأعوام العشرة التى أمضاها نابوكوف كأستاذ فيها . ولكن اثنين من طلبته تم

تم تعيينهما عضوين فى هيئة تدريس كل من جامعتى ولسلى وكانساس.

عندما انتهت فترة عمله بكورنيل رأى بعض زملائه فى ذلك بشارة خير للجامعة ، لأن هذا سوف يعطيها فرصة منح درجات علمية عليا للدارسين للغة الروسية فى قسم الدراسات العليا .

وفى عاميه الأخيرين في جامعة كورنيل لم يلتحق طالب واحد يتمتع بالكفاءة بقسم اللغة الروسية . ولم يتنبه نابوكوف أو يعترف بأن السبب الحقيقى في ذلك يرجع إلى سياسته المتعنتة . وفى ٣٠ سبتمبر ١٩٥٨ كتب نابوكوف خطابا إلى المسئولين عن جامعة كورنيل يشكو فيه من التدهور المطرد الذى أصاب قسم اللغة الروسية وآدابها فى كورنيل على نحو لايمكن السكوت عليه . وأضاف مؤلفنا فى شكواه أنه وجد فى كورنيل عند التحاقة بالعمل فيها ثلاثة معلمين أكفاء للأدب الروسى ترك اثنان منهم العمل بالقسم ولم يبق فيه غير معلم واحد ذى كفاءة عالية هو أفجوستا جارير . كما أنه شكا من أن الأساتذة المحليين متخصصون فى اللغويات الروسية ولا يتحدثون هذه اللغة .

عندما وصل نابوكوف إلى إيثاكا اختاره العميد الجديد ميلتون كوان شريكا له فى لعبة التنس . كان كوان يعيش على مقربة من منزل نابوكوف وعرف هذا الرجل من عضو هيئة التدريس أفجستا جاريل أن مؤلفنا فى شبابه اشتغل فى برلين كمدرس للتنس فاقترح على نابوكوف أن يتبارى معه . وللوصول إلى ملعب التنس كان كوان يصحبه فى سيارة كروسلى حمراء صغيرة الحجم من النوع الذى يستخدم فى تعليم قيادة السيارات للأطفال . يبدو أن نابوكوف وجد متعة فى ركوب هذه السيارة اللعبة التى شبهها بحوض الاستحمام . وأيضا اعتاد مؤلفنا أن يلعب الشطرنج مع زوجته ويهزمها، ولكن النتيجة كانت مختلفة عندما جرب لعب الشطرنج مع أحد جيرانه البروفيسور ماكس بلاك الذى استطاع بسهولة أن يلحق به الهزيمة النكراء .

كان فى كورنيل قسم لتدريس الحشرات عمل فيه عالم حشرات بارز اسمه ت.م فوريس الذى سبق لمؤلفنا أن قابله بجامعة هارفارد .

وقد وصف هذا الرجل مؤلفنا بأنه واحد من أفضل جامعى الفراشات من الحقول ومن أحسن الفاهمين لها .

وأكد أحد زملائه فى جامعة كورنيل أنه كان بوسعه أن يتفوق فى مجال علم الحشرات لو أنه أمضى فى دراسته وقتا أطول. وعاب عليه بعض زملائه المتخصصين فى علم الحشرات أنه لم يعنى بالاطلاع على النظريات المستجدة فى علم الحشرات غير أنه امتدحه بسبب استغراقه فى وصف التفاصيل الدقيقة الخاصة بالحشرات .وتخصص مؤلفنا أكثر من بقية علماء الحشرات فى فراشة تعرف باسم كيلينيدال فضلا عن تخصصه العميق فى أعضاء الفراش التناسلية . واكتشف بنفسه قدرة أحد منظفات الأسنان فى الحفاظ عليها بدلا من المحاليل التى يستخدمها المتخصصون ولأنه كان يستعمل الكحول المخفف فقد اشتكى ابن عمه نيكولاى من أنه كان يفوح دائما برائحة أثير خفيفة . وفى السنوات العشر سنوات الأولى من وجوده فى الولايات المتحدة أمضى مؤلفنا صيفا واحدا فى كاليفورنيا وصيفين فى فيرمونت وصيفا فى ولسلى وآخر فى نيوهامشير كما أمضى شهور الصيف فى منطقة الروكى ماونتنز (الجبال الوعرة) . وفى ولسلى نجح فى اصطياد مجموعة رائعة من الفراش كان نابوكوف أول من اصطادها .

وظل يسافر بالقطار من مكان إلى مكان بحثا عن الأنواع الجديدة من الفراش حتى عام ١٩٤٩ وهو يتنقل من فندق صغير على جانب الطريق إلى فندق صغير آخر لدرجة أنه نزل فى مئات الأوتيلات الزهيدة الإيجار فى رحلاته الاستكشافية بحثا عن الجديد فى عالم الفراش . وفى أحد الأيام استطاع اصطياد بعض الفراشات النادرة أثناء تحليقها فوق كومة من السباخ وفي إحدى رحلاته الاستكشافية فى قمة الجبل انزلقت قدماه فسقط من على مسافة تبلغ ستمائة قدم فأصابته رضوض شديدة شعر رغمها بالسعادة لأنه نجح فى اصطياد الفراشة التى يبحث عنها .

وفي عام ١٩٥١ اضطلع نابوكوف بتأليف عدد من الكتب هى «لوليتا» التى كان عنوانها الأصلى «مملكة بجوار البحر» وتأليف قصة قصيرة ظهرت عام ١٩٥٨ بعنوان «الوحش المزدوج» .

وكتاب عن «مدام بوفارى» وترجمتين لرواية «أوفيجين» وحكاية «إيجور» إلى جانب المقالات التى نشرها حول «الفراشات» .

وفى عام ١٩٥٣ نظم نابوكوف مجموعة من القصائد الروسية تتناول بأسلوب ساخر حنينه إلى روسيا التى فقدها إلى الأبد جزءاً منها فى إحدى المجلات التى أصدرها فى نيويورك تلميذه رومان جرينبرج .

وأصر على أن يتقاضى أجرا على هذه القصيدة رغم أن المجلة كانت فقيرة ولا تعطى أية أجور عن المواد التى تنشرها . فاضطر تلميذه جرينبرج أن يعطيه دولارين على مضض قائلا له وهو يودعه «إنه مجرد مبلغ رمزى» . والجدير بالذكر أن مؤلفنا فى عقد الخمسينيات قطع علاقته بكل الروس المهاجرين إلى أمريكا باستثناء ثلاثة هم مايكل كازنوفتش ورومان جرينبرج وألبرت بارى الذى أصبح فيما بعد أستاذ اللغة الروسية فى جامعة كولجيت والذى عبر كتابه عن عظيم إعجابه بمؤلفنا . التقى هذا المريد بنابوكوف لأول مرة فى عام ١٩٥١ . وفى مؤتمر أكاديمى عقد فى جامعة كورنيل فى ربيع عام ١٩٥١ تحدث مؤلفنا عن ترجمة بوشكين إلى اللغة الإنجليزية . وأراد بارى الاستفادة من مقابلة نابوكوف فى المؤتمر فأحضر الطبعات الأولى من جميع

مؤلفات نابوكوف كى يوقع عليها . وعندما زاره بارى فى منزله وطلب توقيعة على النسخ (وجميعها طبعات أولى) رسم فراشة تحت توقيعه، وأصبحت فيما بعد عادته عند التوقيع على أوتوجراف .

ويذكر زملاؤه عنه فى تلك الفترة أنه كان يسير بجوار زوجته غارقا فى أفكاره . وكانت زوجته تلكزه بحدة فى ضلوعه حتى يتنبه كلما مر واحد من معارفه أو أصدقائه حتى يجيبه بإبتسامة عريضة .

يقول أحد تلاميذه إنه كان يسير فى ممرات الجامعة شارد الذهن ويدخل قاعة غير القاعة التى يحاضر فيها ويبدأ فى إلقاء المحاضرة على الطلبة الجالسين فى انتظار محاضر آخر فيسمعون محاضرة غير التى جاءوا من أجلها . وعندما يحضر المحاضر الأصلى يجمع مؤلفنا أوراقه ويتأهب للإنصراف ويخاطب الطلبة مازحا : «لقد استمتعتم إلى إشارة إلى العرض التادم فى الأدب الروسى ويمكنكم تسجيل أسمائكم لمشاهدته» .

كان نابوكوف وثيق الصلة بالباحث المعروف فى الأدب

الروسى جليب ستروف الذى سبق أن التقى به فى برلين وكامبريدج . وأهدى مؤلفنا لستروف قصيدة قصيرة فى عام ١٩٢٣ غير أن علاقته الحميمة به مالبث أن اعتراها الوهن . ألف ستروف عام ١٩٥٦ كتابا بعنوان «الأدب الروسى فى المهجر» أفرد لكاتبنا فيه نحو ١٢ صفحة .

وكان من عادة كاتبنا أن ينكب على عمله بدون كلل أو ملل معظم ساعات الليل ولا ينام إلا وقتا قصيرا . وأيضا لاحظ صديقه إدموند ويلسون شدة انكبابه على العمل عندما زاره فى إيثاكا فى مايو ١٩٥٧، مع ناشر أمريكى لنشر روايته «لوليتا» فقد وجد ويلسون فى حجرته مائة وخمسين مقالا للطلبة انصرف إلى تصحيحها أثناء نزول ويلسون ضيفا عليه.

غير أن الخمور والمشروبات الروحية اللذيذة التى أهدته الجامعة بها شدت من أزره وأعانته على التغلب على أوقاته العصيبة .

كثرت الخلافات فى الرأى بين نابوكوف وصديقه إدموند ويلسون ولكنها لم تصل إلى حد القطيعة إلا فى عام

١٩٥٤ عندما طالع ويلسون رواية «لوليتا» كمخطوطة . وعندما سلم مؤلفنا مخطوطة «لوليتا» إلى الناشر جون شتراوس طلب منه نشرها باسم مستعار لأنه لايريد أن يخسر وظيفته فى جامعة كورنيل التى عينته فى يوليه ١٩٥٤ لأول مرة أستاذا كامل الأستاذية مانحة إياه راتبا كبيرا قدره نحو عشرة آلاف دولار وهو مبلغ كبير لم يسبق له أن تقاضاه قائلا :

إن الرواية أسوأ ما كتب . ورغم رأيه السيئ فى الرواية عرض ويلسون على صديقه كعادته مساعدته فى نشرها مشيرا إلى عدد من الأخطاء اللغوية التى تشوبها وبسبب إباحيتها لم تجد هذه الرواية قبولا عند عدد من الناشرين أمثال شتراوس ودابلداى وسيمون وشوستر ودار نشر ديال وهاربرز للنشر . وكان السبب فى إحجام الناشرين عن نشرها هو الخوف من رفع القضايا ضدهم . ولهذا تأخر صدورها أربعة أعوام وبلغ دخل مؤلفنا من هذه الرواية - رغم ذيوع صيتها - نحو ثلاثين ألف دولا فقط وهو مبلغ يقل كثيرا عما كان يتوقعه .

وفيما بعد تقاضى نابوكوف مائتين وخمسين ألف دولار عن الرواية بالإضافة إلى مائة وخمسين ألف دولار لتحويلها إلى فيلم وأربعين ألف دولار لكتابة سيناريو الفيلم الأمر الذى وفر له الأمان والاستقلال الاقتصادى المنشود كثرت الخلافات الفكرية بين نابوكوف وويلسون حتى وصلت بهما إلى طريق مسدود .

فأثناء وجوده في نيفادا عام ١٩٤٦ قرأ ويلسون أعمال مالرو . فكتب إلى صديقه نابوكوف فى ١٧ نوفمبر ١٩٤٦ يقول له إنه اكتشف أن مالرو هو أعظم كاتب معاصر فرد عليه نابوكوف بخطاب من يقع فى أربع صفحات تتضمن هجوما شديدا على الكاتب الفرنسى واتهمه بترديد الأكليشيهات والمزاعم وعدم توخى الدقة فى كتاباته . ولكن هذا الهجوم علي مالرو لم يقلل من شأن مالرو من وجهة نظر ويلسون . وأيضا احتدم الخلاف بين نابوكوف وويلسون حول تقييم أدب جان جينييه ووليم فلوكنر وباسترناك . ففى حين رفع ويلسون رواية «الدكتور زيفاجو» إلى عنان السماء خسف بها مؤلفنا الأرض واصفاً إياها بأنها رواية من الدرجة الثالثة تبالغ فى عواطفها ولا تتمشى مع قريحة شاعر عظيم مثل

باسترناك . تضايق نابوكوف من شعبية رواية باسترناك «الدكتور زيفاجو» فقد جاءت من حيث الشعبية فى المرتبة الثانية بعد رواية «لوليتا» الأمر الذى زاد من حنق مؤلفنا على رواية باسترناك . وانتهز كل الفرص المتاحة أمامه للحط من شأنها. وعندما اقترح البعض اسم نابوكوف كأفضل من يترجم قصائد زيفاجو إلى الإنجليزية رفض باسترناك هذا الاقتراح متهما نابوكوف بالغيرة منه . واتهم مؤلفنا باسترناك بالسعى إلى مغازلة الانقلاب البلشفى بدليل أن الذى نشر الدكتور زيفاجو ناشر إيطالى شيوعى . وعبثا حاول معارفه أن يفهموه أن هناك فرقا كبيرا بين الشيوعية الروسية والشيوعية الإيطالية . وأيضا أشتم نابوكوف من بين سطور رواية «الدكتور زيفاجو رائحة معاداة السامية التى يسعى باسترناك إلى إخفائها . ورغم كراهية نابوكوف الشديدة للشيوعية واستعداده لتحمل مظالم المكارثية من أجل اجتثاثها فإن بغضه للنازية كان أشد وأعنف من بغضه للشيوعية ففى فترة الحرب العالمية الثانية تمنى إبادة ألمانيا النازية على يد روسيا السوفيتية.

وبالنظر إلى أن جامعة كورنيل اتسمت بمحافظتها فإن مظالم المكارثية لم تلحق الأذى الكبير بأساتذتها بسبب خلوها من الشيوعيين واليساريين . وقد كان جهاز المخابرات الأمريكية المعروف باسم FBI على علاقة وثيقة بجامعة كورنيل الكبيرة . وأيضاً كان نابوكوف بوصفه أستاذا للغة الروسية على علاقة طيبة بعملاء الـ FBI . وترجع هذه العلاقة الطيبة إلى شدة مقته للشيوعية وهو مقت حدا به إلى القول إنه سوف يشعر بالفخر لو أن ابنه ديمترى أصبح أحد عملاء الـ FBI . ويبدو أن علاقته الطيبة بهذا الجهاز سهلت عليه الحصول على الأستاذية الكاملة رغم أنه لم يكن هناك آنذاك طلبة يدرسون اللغة الروسية .

وكان نابوكوف تربطه بموريس بيشوب أوثق الصلات . ويرجع إلى موريس بيشوب الفضل فى الدفاع عن مصالحه فى إدارة جامعة كورنيل . ويذكر نابوكوف فى يومياته أن بيشوب (الذى أتقن اللغات والآداب الفرنسية والإيطالية والإسبانية و يتحدث اللاتينية بطلاقة) أفضى إليه بسر مفاده أن اللغة التى يستخدمها نابوكوف فى كتاباته كانت قادرة

على إثارته جنسيا وجعلت قضيبه ينتصب وهو الأمر الذى يحدث له نادرا . وعلى أية حال كان الإعجاب بين بيشوب ونابوكوف متبادلاً، ورغم الود والإعجاب المتبادل فقد دب سوء التفاهم بينهما حول رواية «لوليتا» . وخشى بيشوب أن تتسبب هذه الرواية فى طرد مؤلفها من الجامعة . ونحن نراه فى ٢٨ مايو ١٩٥٧ يرسل خطابا إلى ابنته يشكو فيه من أن نابوكوف يحاول جاهدا أن يثير الفضائح حول روايته بإصراره على أنها أروع ما سطره يراعه . وعاب بيشوب على مؤلفنا أنه يسعى إلى أن يعيش على ما تدره الفتاة المراهقة لوليتا عليه من دخل ورغم ضيق نابوكوف من هذا النقد فقد اعترف صراحة بأنه عاش على المكاسب الهائلة التى جناها من روايته «لوليتا» واتضح فيما بعد أنه لايوجد أى خطر على وظيفة نابوكوف بالجامعة . بالعكس طلبت منه الجامعة القاء محاضرة عامة يوم ١٠ أبريل ١٩٥٨ فاقترح أن تحمل عنوان «القراء والكتاب والرقباء فى روسيا» . وكانت محاضرة حاشدة حضرها كل أهل إيثاكا وعلى رأسهم رئيس الجامعة مالوت، ورسخت أقدام نابوكوف أكثر من ذى قبل عندما نشرت دار أولمبيا رواية «لوليتا» عام ١٩٥٥ تلتها فى عام

١٩٥٨ طبعة أخرى أصدرتها دار بوفمان للنشر . ولم يصل جامعة كورنيل غير خطاب اعتراض واحد غفل عن التوقيع من والدين عبرا عن قلقهما من مصير أبنائهما جاء فيه أنهما منعا أولادهما من حضور أية مقررات يتولى نابوكوف تدريسها خوفا عليهم من الانحراف والانحلال . وقد تحمس مارك سزيفنل تحمسا شديدا للرواية فألقى محاضرة تمتدحها وتقرظها . ولكن هذا لم يمنعه من إظهار بعض مثالبها . ويعتبر أرثر ميزنر أكبر المدافعين عنها في جامعة كورنيل أما المؤلف نفسه فدافع عن روايته باعتبارها عملا فنيا له مضمون أخلاقي ودلل على أخلاقية روايته بأنه تلقى خطابا من أحد شواذ الجنس يقول إنه تخلى عن ممارسة الشذوذ الجنسي بعد قراءة «لوليتا» .

الخلاصة أن الأمريكان أنفسهم استقبلوا الرواية بصدر رحب في حين هاجمه المهاجرون الروس في نيويورك هجوما عاتيا فقد اجتمع عدد منهم في مكتبة نيويورك العامة وأقاموا لمؤلفها محاكمة . وأطلق عليه مهاجر روسي سهامه فكتب شاعر روسي مهاجر لا في العير ولا في النفير يسخر منه قائلا : «بعد أن فقد ترابه الوطني وجد نابوكوف أرضا جيدة بين فخذيه» .

وخلاصة القول إن أمريكا لم تصادر رواية «لوليتا» ولكن كان هناك خوف من رفع دعوى قضائية ضدها . وأسعد مؤلفنا أن يقرأ فقرة فى مجلة «نيويورك بوكس ريڤيو» مفادها أن الكاتب الإنجليزى الكبير جراهام جرين يعتبر رواية «لوليتا» واحدة من أعظم الكتب الصادرة فى عام ١٩٥٥ غير أن محرراً فى جريدة «الصنداى اكسبريس» اسمه جون جوردون اعتبرها عملا إباحيا وأدبا مكشوفا.

وهكذا بدأت الملاحاة بين المدافعين عن رواية «لوليتا» والمهاجمين عليها وباشتداد هذه الملاحاة ذاع صيت نابوكوف وطبقت شهرته الآفاق. وعلى سبيل الدفاع المازح أنشأ جراهام جرين جمعية تحمل اسم جون جوردون المناهض لرواية «لوليتا» واجتمع أعضاء هذه الجمعية البالغ عددهم نحو ستين عضوا فى ٦ مارس ١٩٥٦ ليختاروا جرين رئيسا لها، فطلب منهم على سبيل الدعاية أن يتخذوا قرارا بعدم استخدام الكتاب أية كلمة أو لفظ خارج «قاموس اكسفورد المختصر» ضمانا لنظافة الكلمة المكتوبة وحظر أى عمل ينتهك هذا القرار. وقد اشترك فى جمعية «جون جوردون» الهادفة إلى تسفيه آرائه عدد من كبار الكتاب الإنجليز أمثال

كريستوفر ايشروود وانجوس ويلسون وبيتر بروك، وبسبب زراية هذه الجمعية بأفكار جون جوردون ذاع صيت رواية «لوليتا» أكثر وأكثر فى أرجاء العالم الأمر الذى شجع الناشر بوتمان على نشرها خارج أمريكا. فقد ظلت دور النشر الأمريكية حتى عام ١٩٥٤م تحجم عن نشر الرواية فى نيويورك. فأرسلها مؤلفها إلى مديرة أعماله فى فرنسا فتمكنت من الاتفاق مع دار نشر أولمبيا. وبسبب لوليتا أصبح اسم نابوكوف على لسان القاصى والدانى وانهمرت المقالات المكتوبة عنه. وفى أحد الأيام زار الناقد الأمريكى اليهودى ليونيل تريلينج جامعة كورنيل ليجتمع بنابوكوف فى قاعة واحدة. والتف حشد من الحاضرين حوله فى حين التف حشد آخر حول تريلينج. وتعمد الاثنان أنه يتجاهل أحدهما الآخر غير أنهما تقابلا عند باب الخروج. فقال نابوكوف لتريلينج : «أفهم يا مستر تريلينج أنك لا تحب صغيرتى لوليتا» فأجابه تريلينج قائلا : «إن الأمر ليس كذلك»، حيث «إنه أجل قراءة هذه الرواية حتى فصل الصيف كى يفهمها على حقيقتها». وفى الواقع كتب تريلينج واحدا من أقوى المقالات المدافعة عن «لوليتا» باعتبارها آخر رواية تعالج العواطف الجياشة. وفى

البرنامج الذى أعدته محطة الإذاعة البريطانية وصف تريلينج الرواية بأنها من أكثر الروايات تأثيرا فى القلب والعقل معا.

وفى برنامج تليفزيونى.قال مؤلفنا إنه بتأليف رواية «لوليتا» اخترع أمريكا جديدة من نسج الخيال. ثم أضاف أن الذين لايحبون هذه الرواية منافقون لايعرفون حقيقة الحب أو حقيقة الجنس». ويعتبر أوفيلى بريسكوت من أشد المعادين للرواية كما يتضح لنا من هجومه عليها فى صحيفة «النيويورك تايمز».

وبدا من الواضح أن الناشرين الانجليز سوف يحجمون على نشر الرواية لأن من شأن نشرها تعكير صفو السلام السياسى فى إنجلترا» وحذر حزب المحافظين الناشر ويدنفلد ونيكلسون من مغبة الإقدام على نشر الرواية. واجتمعت حكومة المحافظين لتناقش الأخطار الناجمة عن نشر الرواية. وهدد النائب العام بعد اجتماعه بماكيلان رئيس الوزراء البريطانى الناشر ويدنفلد ونيكلسون بتحريك الدعوى القضائية ضده إذا أقدم على نشر الرواية. وكذلك طلب السياسى المعروف ادوارد هيث من الناشر الإنجليزى الإمتناع عن نشر الرواية. ولكن الناشر تحدى جميع هذه

الضغوط قائلا إنه سوف ينشر نسخة واحدة فقط من الرواية يعطيها لأحد العاملين فى دار نشره. وهنا آثر النائب العام الصمت واكتفى بمراقبة مجريات الأمور. فتجرأت دار نيكلسون للنشر على نشر الرواية وأقامت حفلا فى فندق ريتز الشهير فى لندن احتفالا بهذه المناسبة وقام رسول بتسليم رسالة إلى نيكلسون الذى صعد فوق منضدة ليقرأ على الحاضرين جانبا من هذه الرواية الأمر الذى يعنى أن الحكومة الإنجليزية تراجعت عن التهديد بتقديم الناشر إلى المحاكمة. وانتشرت «لوليتا» انتشار النار فى الهشيم وأصبحت حديث الناس لعدة شهور وأعيد طبعها مرتين وبنشر الرواية ضحى الناشر نيكلسون بمقعده فى البرلمان ليصبح واحدا من أهم وأغنى الناشرين فى بريطانيا، وحضر نابوكوف إلى لندن خصيصا لحضور هذا الاحتفال ولكنه لم يمكث أكثر من ثلاثة أيام فى إنجلترا ولا غرو فقد أصبح غريبا فيها وكان معارفه هناك يعدون على أقل من أصابع اليد الواحدة. وفى محادثته مع ناشره الإنجليزى تجنب مؤلفنا التعليق على روايته ، وبينما هو يركب التاكسى مع ناشره الإنجليزى جورج ويدنفلد وشريكه نيجيل نيكلسون علق

نابوكوف على روايته «لوليتا» قائلا إنه أراد بها أن تكون مأساة فقد قامت علاقة همبرت بالفتاة على أساس الشهوة والأنانية عندما كانت هذه الفتاة فى أوج نضارتها. ولكن ما أن أصبحت حاملا وفقدت نضارتها وتحولت إلى مومس حتى شعر همبرت نحوها بالحب، أى أنه أحبها بعد أن صارت غير صالحة للحب. وقد ردد نابوكوف نفس هذه الفكرة فى حوار معه أجرى عام ١٩٦٤. وقد اعترف مؤلفنا بأنه يشبه شخصيته الروائية همبرت فى عدد من الجوانب .

وفى عام ١٩٥٩ هبطت الثروة الطائلة على مؤلفنا بسبب تحويل الرواية إلى فيلم سينمائى، وكان فى مقدوره أن يستقيل من عمله بالجامعة وتخصيص كل وقته للقراءة. ولكن حبه لجامعة كورنيل منعه من ذلك وجعله يكتفى بأخذ إجازة من ايثاكا.

وأخيرا قرر مغادرة أمريكا والرحيل إلى سويسرا حيث طلب إرسال أوراقه إلى هناك ولكن وزنها اقترب من طن وبلغت تكاليف نقل أوراقه بالبحر ثلاثة آلاف دولار. وقبل أن يشد رحاله إلى أوروبا حل محله بصفة مؤقتة فى وظيفته الجامعية رجل يدعى هربرت جولد. وقبل رحيله من أمريكا

اصطحب نابوكوف زوجته يوم ٢٣ فبراير ١٩٢٩ للقيام بآخر رحلة لهما بالسيارة فى ربوع أمريكا حيث توفر على إعداد سيناريو فيلم لوليتا. وقبل رحيله وزوجته من ايثاكا ابلغت حكومة ألمانيا الغربية زوجته بأنها قررت تعويضها عن طرد النازيين لها من وظيفتها. وكان من حسن حظه أن دار نشر أولمبيا التى نشرت الرواية لم تكن تتصور أن السينما سوف تتلهف على تحويلها إلى فيلم فسمحت للمؤلف بكل ما عاد به الفيلم من أرباح. غير أن مخرج الفيلم لم يرض عن السيناريو الذى أعده نابوكوف لافتقاره إلى العنصر الدرامى الأمر الذى جعله يغير كثيرا فى السيناريو الذى أعده نابوكوف للسينما، وبعد الانتهاء من إعداد الفيلم استقل نابوكوف الباخرة يوم ٢٨ مايو متجها إلى أوروبا يحيط به عند وصوله الصحفيون من كل جانب على عكس وصوله إلى الأراضى الأمريكية حيث لم يأت صحفى واحد لاستقباله.

كاد نابوكوف فى عام ١٩٥٤ أن يدمر مخطوطة روايته «لوليتا» بعد أن اكتشف صعوبة الاستمرار فى استكمالها ولكن زوجته تدخلت فى آخر لحظة لتنقذ مخطوطة الرواية من الدمار. وعلى أية حال لم يكن موضوع الرواية غريبا عليه فقد

سبق له أن عالجه فى قصتين من قصصه غير المنشورة وهما قصتا «الساحر» التى قرأ مخطوطتها على عدد قليل من أصدقائه و «الجنية». يقول مؤلفنا إن موضوع روايته «لوليتا» خطر له فى سبتمبر ١٩٣٩ أثناء مرضه بالتهاب الأعصاب .

ألف نابوكوف «النار الباهتة» أثناء وجوده فى سويسرا للمرة الأولى. ولكنه قام بتطويرها فى فترة إقامته بإيثاكا بالولايات المتحدة، وفى سويسرا أيضا قام مؤلفنا بتأليف كتاب ضخم عن الفراش استغرق ثلاثة أعوام وتطلب جهدا جهيدا. غير أنه وضع هذا المبحث جانبا ولم يستكمله الأمر الذى جعله لايساير أحدث المستجدات فى علم الحشرات وانشغل مؤلفنا عن الحشرات بتصحيح ترجمات لوليتا إلى اللغتين الفرنسية والألمانية وفى سويسرا أمضى مؤلفنا أوقاتا سعيدة مع الكاتب الفرنسى المعروف آلان روب جرييه الذى أجرى حديثا مع كاتبنا نشره فى مجلة «الفن». ومن سويسرا ذهب نابوكوف لزيارة فرنسا وإيطاليا والبرتغال. والجدير بالذكر أن السفير الإسرائيلى فى سويسرا زاره كى يدعوه إلى زيارة إسرائيل. ولكنه أرجأ الزيارة بسبب تفكيره فى العودة إلى الولايات المتحدة عام ١٩٧٢ .

وفى عام ١٩٦٤ دعته جامعة هارفارد لقراءة جانب من أعماله فى نفس القاعة التى كان يقوم بالتدريس فيها عام ١٩٥٢ . وكانت أمسية هارفارد حافلة حيث دخل مؤلفنا القاعة دخول الظافرين. وفى زيارته لأمريكا اتضح لمعارفه وأصدقائه من الأمريكان أن الحياة فى سويسرا راقت له كما اتضح أن زوجته اعتادت الحياة البورجوازية المترفة فى أوروبا وأنها أصبحت أكثر تألقا وجمالا فى بيته البذخ والترف. وأثلج صدر نابوكوف وزوجته أن يعيشا على مقربة من ميلانو الإيطالية حيث كان ابنها ديمترى يتدرب على الغناء. وجاءت بعض أخوات نابوكوف وزوجته للعيش فى سويسرا . واستقر نابوكوف فى بلدة مونرو السويسرية حيث كان على اتصال بالناشرين الأمريكان والأوروبيين. ولم تكن مونرو غريبة على الروس فقد سبق لنيكولاى جوجول أن زارها وهو يتأهب لكتابة رواية «الأرواح الميتة» وكذلك قام تولستوى بزيارتها وعاش دستيوفسكى ردحا من الزمن على مقربة منها . وتناول نيوتشيف جبالها فى بعض أشعاره . والغريب أن مؤلفنا ساند الحرب الأمريكية فى فيتنام رغم أن عامة المثقفين الأمريكان اعترضوا عليها . وفى سويسرا كان

نابوكوف يلتهم الصحف والمجلات مثل «انترناشيونال هيرالد تريبيون» و «التايمز» و «الأوبزرفر» و «التلغراف» و «النيوستيسمان» و «البلاى بوى» و «لوى» وفى مقال له بعنوان «بوشكين قارئا للشعراء الفرنسيين» يؤكد نابوكوف ضرورة استجلاء النقاد للأثر العميق الذى تركه الشعر الفرنسى فى شعر بوشكين .. منذ أبرز نابوكوف الأثر الذى تركه عدد من شعراء الفرنسية فى شعر بوشكين . فضلا عن أنه نبه إلى تأثر بوشكين بالأدب الانجليزى عبر الأدب الفرنسى، ويمثل هذا الرأى النقدى إسهاما حقيقيا فى مجال النقد الأدبى يقول مؤلفنا إن بوشكين تأثر بوضوح بأدب لافونتين وموليير ومالرو وشاتوبريان وسينكلور وأن أدبه ينم عن بالغ تأثره بثقافة الغال. والجدير بالذكر أن مؤلفنا كان يعشق الاطلاع على المعاجم والقواميس كما كان يهوى اختراع الكلمات الجديدة. ولم يصب نابوكوف الثراء الطائل والشهرة العريضة فحسب بل أصبحت كلمته فى مجال الأدب مسموعه وأنشا مكتبا للاستشارات القانونية عين فيه عددا من أبرز المحامين ورجال القانون ورغم احتدام الخلاف بينه وبين كثير من المتعاملين معه فإنه لم يفكر قط فى مقاضاة

أحد . وبسبب عدوانيته هاجم بشدة كثيرا من الحاصلين على جائزة نوبل فى الأدب وأعلن أنه أجدر بها من سواه .

وفى عام ١٩٦٩ نشر مؤلفنا رواية «أدا» التى امتلأت صفحاتها بالحب الآثم المحرم والأدب البذىء والتى كان عنوانها الأصلى «نسيج الزمن» . وعقد نابوكوف مع الناشر ماجرو هيل اتفاقا مجزيا يعامله ماديا على أساس عدد الكلمات التى يسطرها فى العام بما فى ذلك ترجماته إلى اللغة الإنجليزية .

وفى عام ١٩٦٨ بلغ مقدم المبلغ الذى تقاضاه من الناشر ماجرو هيل مائتين وخمسين ألف دولار . وهو مبلغ كبير بمقاييس ذلك الوقت، وفى عام ١٩٧٣ جمع مؤلفنا مقالاته الصحفية العديدة فى كتاب بعنوان «آراء قوية» وكان من عادته أن يمتنع عن الإجابة عن أى سؤال لايروق له. فضلا عن أنه أحيانا عامل محاوريه بوقاحة لا مبرر لها. وكان يحلو له أن يطلق الشائعات حول الميول الجنسية لمعارفه دون الخجل من اغتيابهم .

وفى سويسرا أمضى الثمانية عشر عاما الأخيرة من حياته حيث احتسى الخمور فى فناجين حتى لاتراه زوجته

فتمنعه من احتسائها لأسباب صحية وفي آخريات سنى عمره بدأت مشاعره العدائية نحو الكتاب السوفيت تتغير فأصبح يرحب بهم أثناء زياراتهم للغرب ومن بينهم الشاعرة بيلا أخمادولينا والشاعر بولات أكدود نيرهافا. وبدأت علاقته تتوطد بالمثقفين والمفكرين والكتاب السوفيت. وهكذا تخلى مؤلفنا عن زرايته الشديدة بالثقافة السوفيتية. ومن ناحيته بدأ الاتحاد السوفيتي يسمح بنشر بعض أعماله بعد أن كان يفرض الحظر الكامل عليها . غير أن علاقته بالأديب المنشق السوفيتى المعروف الكسندر سولجنتسين كانت متوترة منذ البداية ولم يحاول الاثنان الالتقاء أو التعارف وعندما حصل سولجنتسين على جائزة نوبل للأدب أراد التودد إلى نابوكوف فأرسل إليه خطابا يقول فيه إنه «أى نابوكوف» أحق بالجائزة منه. فرد عليه مؤلفنا متعاليا إنه من المحزن أن يرى خطاب سولجنتسين له ينتهك قواعد النحو الروسى. ولهذا تعمد سولجنتسين عندما جاء إلى مونرو أن يتحاشى مقابلة نابوكوف ويعزو البعض ذلك إلى أن سولجنتسين الذى يمقت الترف ويعشق حياة البساطة والزهد والتقشف شعر بالنفور فى فخامة الفندق الذى نزل فيه نابوكوف . ومن ناحيته لم

يذكر نابوكوف أدب سولجنتسين أو يشير إليه بكلمة.

وقد ألفت زنايدا سشاكوفسكوى قصة قصيرة بعنوان «الأرض الخراب» تدور حول السنوات الأخيرة من حياة نابوكوف في سويسرا أثارت ملاحاة شديدة، فأنكرت المؤلفة أن قصتها تدور حول حياة وزواج نابوكوف. وعلى أية حال أجرت الإذاعة البريطانية في مارس ١٩٧٣ حوارا نادرا حول زواجه وقدرة زوجته المذهلة على العثور على قصاصة فى كمية هائلة من الورق. فضلا عن قدرتها العجيبة على استشعار ما يحدث عن بعد وقراءة أفكار زوجها ومعرفتها التى لاتبارى بالحكم والأمثال الروسية القديمة .

ويعتقد أن مؤلفنا أصيب بالسرطان فى أيامه الأخيرة. وكتمت عائلته وفاته لعدة أيام . ورغم أن المنية وافته فى إحدى المستشفيات فإن الأطباء عجزوا عن التوصل إلى السبب الحقيقى فى الوفاة ويذكر ابنه أنه أصيب بالانفلونزا وأن العدوى انتقلت منه إلى والده الذى نقل إلى المستشفى حيث أصيب بمرض معد أثناء علاجه من الانفلونزا وتقول أوراق المستشفى أنه أسلم الروح فى الساعة السادسة والخمسين دقيقة من مساء يوم ٢ يولية ١٩٧٧ .

(٥)

مزيد من الأضواء على رواية لوليتا

قبل أن نعرض لأحداث رواية لوليتا ينبغى علينا أن نذكر أنها موغلة فى البذاءة رغم رقى أسلوبها وجدته وخلوها من الألفاظ أو المشاهد الفاحشة . وترجع بذاءة الرواية إلى طبيعة موضوعها الذى يتناول اللوثة الجنسية التى تنتاب بطلها همبرت همبرت (الباحث الأدبى المولود فى باريس عام ١٩١٠ والبالغ من العمر نحو أربعين عاما) عندما يقع فى غرام طفلة لايزيد عمرها عن اثنى عشرة ربيعا وهكذا تعالج الرواية العشق الذكورى الملتاث للفتيات الصغيرات اللائى تتراوح أعمارهن بين التاسعة والرابعة عشرة واللائى لم يبلغن بعد سن النضوج الجنسى .

ويرجع عشق همبرت همبرت الملتاث لفتيات فى عمر بناته إلى مروره فى طفولته بتجربة جنسية فاشلة لم تكتمل بينه وبين حبيبة قلبه الطفلة أنا بيل لى التى قدر لها أن تموت بمرض التيفوس الذى داهمها فى طفولتها.

والراوى لأحداث رواية «لوليتا» هو همبرت همبرت نفسه .

يقول همبرت أنه قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية بوقت قصير غادر باريس وسافر إلى نيويورك . وفى عام ١٩٤٧ انتقل إلى مدينة صغيرة اسمها راسديل فى ولاية نيو انجلاند كى يتفرغ للتأليف . وتشاء ظروفه أن يبحث عن حجرة للإيجار فى بيت أرملة تدعى شارلوت هيز التى تطلعت إلى رجل يؤنس وحشتها بعد وفاة زوجها . وتقوم هذه الأرملة بالتجوال مع همبرت فى أرجاء منزلها كى تقنعه بأنه سوف يجد عندها السكن المناسب ولكن هذا السكن لم يرق له فأعد نفسه لرفضه والبحث عن سكن آخر .

ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان . فما أن اقتادته الأرملة للفرجة على حديقة البيت حتى رأى ابنتها – وهى فتاة فى الثانية عشرة من عمرها تدعى دولوريس ويسميها الراوى دولى أحيانا ولوليتا أحيانا أخرى ولولا أحيانا ثالثة و«ل» أحيانا رابعة – وهى تعرض جسدها العارى لأشعة الشمس . وما أن وقعت عين الراوى عليها حتى هاجت فى نفسه ذكرى طفولته وتجربته الجنسية غير المكتملة مع حبيبته الطفلة أنابيل لى. وغلبته الشهوة فوافق على الفور على استئجار حجرة حتى يتمكن من غواية الصبية.

ووقعت صاحبة البيت فى غرام الساكن فعرضت عليه أن يتزوجها أو يبحث عن سكن آخر . وملكه الرعب والارتياع فهو لايطيق الزواج منها. ولكن عاد ورأى فى زواجه منها منفعة له سيصبح زوج أم لوليتا . وهداه تفكيره المريض إلى إعطاء كل من زوجته وابنتها مهدئات حتى يستغرقا فى سبات عميق فيتمكن من معاشرة الصبية أثناء نومها . ومن هذا المنطلق يتزوج همبرت من شارلوت رغم مقته لها .

ويبدأ الراوى همبرت فى كتابه يومياته ويسجل أحداث حياته فى رامسديل مركزا بالذات على علاقته لوليتا ويخفى الراوى يومياته فى درج مكتبه المغلق وبينما بوليتا مسافرة للالتحاق بمعسكر صيفى للفتيات، وبينما زوجها غائب عن البيت فى مشوار فى وسط البلد تفتح الزوجة الدرج المغلق وتعثر على يومياته التى باح فيها بمقته للأم وهيامه بلوليتا ابنتها. ولهذا قررت الأم مغادرة البيت مع ابنتها هربا من هذا الوضع الشاذ. ولكنها سطرت قبل هروبها ثلاثة خطابات أحدها إلى زوجها همبرت والآخر إلى ابنتها لوليتا وخطاب ثالث إلى مدرسة بنات داخلية اعتزمت الأم إرسال ابنتها

إليها. ويعود همبرت إلى البيت فتواجهه زوجته شارلوت بيومياته. فيدعى الزوج أنها مجرد مادة ينوى استخدامها فى تأليف رواية. ولكن الزوجة سارعت بمغادرة المنزل لإرسال خطاباتها الثلاثة بالبريد. وبينما هى تعبر الشارع مشتتة الفكر تصدمها سيارة فتقتلها . وتتبعثر الخطابات على الأرض فيقوم طفل بجمعها وتسليمها إلى همبرت الذى يتولى تدميرها.

ويذهب همبرت إلى معسكر الفتيات الصيفى ويخبر لوليتا أن أمها مريضة ترقد فى المستشفى فى حالة خطرة ، ويصطحب الرجل الصبية إلى فندق حيث يقابل رجلا غريبا يدعى كلير كويلتى بدا له أنه يعرف هويته.

وفى الفندق يعطى همبرت حبوبا منومة للصبية ولكنها كانت عديمة المفعول . بل إنها بالعكس احتفظت بيقظتها ومن ناحيتها حاولت لوليتا غواية همبرت من باب المعابثة والتسلية (وهى إحدى أو مرتين فقط تذكر الرواية أنها قامت بغوايته) ويكتشف همبرت عند معاشرتها أن شخصا آخر فض بكارتها أثناء وجودها فى معسكر الفتيات الصيفى وبعد مغادرة الفندق يقول همبرت للوليتا إن أمها ماتت فتشعر

الصبية بالوحدة والخوف وتجد نفسها مضطرة إلى أن تعيش مع همبرت بالشروط التى يمليها عليها .

ويقوم همبرت باصطحاب لوليتا فى سيارة أمها شارلوت للفرجة فى ربوع الريف والسفر من ولاية إلى أخرى والانتقال من فندق إلى آخر . ويحس همبرت بنار الشهوة تتأجج فى حقويه فيغدق على لوليتا الهدايا كى تقبل مضاجعته لها . ورغم أنه يحبها إلى حد اللوثة والجنون فإنها لاتكترث به ولاتعيره أدنى اهتمام، بل إنها تساومه وتستغل اشتهاءه لها كلما استطاعت إلى هذا سبيل، وأخيرا يستقر الرجل والصبية فى مدينة أخرى بولاية نيو انجلاند ويلحقها بمدرسة بنات خاصة مدعيا أنه والدها وولى أمرها .

ويسمح همبرت للصبية بالاشتراك فى نادى التمثيل بالمدرسة مقابل السماح له بمعاشرتها . ومن المفارقات أن اسم المسرحية التى تشترك لوليتا فى تمثيلها تحمل عنوان «الصيادون المسحورون» وهو نفس اسم الفندق الذى نزل فيه همبرت مع الصبية حيث مارس الجنس معها لأول مرة .

واعترفت لوليتا لزوج أمها بأنها قابلت مؤلف المسرحية أثناء حضوره البروفات وأنها شديدة الإعجاب به ، مما جعل الغيرة تشتعل في قلبه ويدب النزاع بينهما قبل ليلة الافتتاح مما دفع الصبية إلى الهرب من البيت .. لم تمض بضع دقائق حتى وجدها وأعادها إلى المنزل . وأعلنت لوليتا أنها تود الرحيل على الفور لاستكمال أسفارها ، الأمر الذى أثلج صدر همبرت الذى اصطحبها معه فى السيارة باتجاه الغرب، ولكن شعورا ملحا ظل يلازمه بأن هناك من يقتفى أثر معشوقته وأنها تعرف هوية الشخص الذى يلاحقها . ويتضح له أنه كان على حق . فقد كان المطارد لها أحد معارفها واسمه كلير كويلتى الذى كان أحد معارف أمها وابن عم طبيب الأسنان المحلى فى رامسديل ، وهو مؤلف المسرحية التى كانت مدرسة لوليتا قد قامت بتمثيلها . وهو عاشق للأطفال كما أنه يهوى أدب الأطفال المكشوف .

ويلاحق هذا الرجل لوليتا حيثما ذهبت لأنهما اتفقا سويا على الهرب .. ويجن جنون همبرت ويشعر بالغيرة تنهش قلبه. وفى أحد الأيام تصاب لوليتا بمرض فيتم نقلها إلى مستشفى قريب . وفى إحدى الليالى يحضر مطاردها إلى المستشفى

ويدعى أنه عمها ويدفع فاتورة الحساب للسماح لها بالخروج من المستشفى .

ويلتاع فؤاد همبرت لاختفاء لوليتا معشوقته فينتقل من فندق إلى فندق ويفحص كالملتاث قائمة نزلاء كل فندق لعله يعثر عليها .

وبعد هروب لوليتا مع عشيقها الجديد يصرف همبرت البالغ من العمر آنذاك ثلاثين عاما همومه فى عشق جديد، فيقيم علاقة جنسية لمدة عامين مع فتاة تعاقر الخمور اسمها ريتا تصغره بعشرة أعوام . وبحلول عام ١٩٥٢ يستقر همبرت فى وظيفته بمعهد أكاديمى متواضع .

وفى أحد الأيام يصله خطاب من عشيقته الهاربة لوليتا التى بلغت آنذاك سبعة عشر عاما تقول له فيه أنها تزوجت وأنها حامل وبحاجة ماسة إلى النقود . ويتسلح همبرت ببندقية ويستقل سيارة زوجته المتوفاة شارلوت . ويذهب لرؤية لوليتا ويعطيها مستحقاتها من ميراث أمها ويطلب منها أن تعود إليه ولكنها ترفض . وأثناء احتدام الحديث بينهما تشرح له لوليتا أن زوجها من قدامى المحاربين وأنه نصف أصم وأنها حامل منه كما أنها تبعته بمحض إرادتها فهو لم

يختطفها . ويعرض همبرت المتيم على لوليتا أن تأخذ كل أمواله نظير إخباره باسم الرجل الذى اتنزعها منه . وتقبل لوليتا هذا العرض وتقول له إنها أحبت بالفعل كلير كويلتى . غير أنها طردته من حياتها عندما عرض عليها تصوير فيلم إباحى معها .

ويقطع همبرت علاقته بلوليتا نهائيا . ويتوجه إلى بيت غريمه كويلتى ويطلق عليه عدة طلقات نارية فيرديه قتيلاً وبينما همبرت الراوى ينتظر تقديمه إلى المحاكمة ألف رواية «لوليتا أو اعترافات أرمل أبيض اللون». وجاء فى تصدير الرواية أن همبرت همبرت وافته المنية فى محبسه يوم ١٦ نوفمبر ١٩٥٢ بجلطة قلبية قبل تقديمه للمحاكمة بأيام معدودة دون أن يعلم أن حبيبته لوليتا ماتت أثناء الوضع فى يوم عيد الكريسماس عام ١٩٥٢ .

ظروف نشر رواية لوليتا :

بعد أن انتهى نابوكوف من تأليف روايته الشهيرة لوليتا فى ٦ ديسمبر ١٩٥٣ ، وفى فترة ذهابه إلى نيويورك لتسجيل حديث أجرته معه محطة الإذاعة البريطانية قابل باسكال كوفيكى ممثل دار نشر فايكنج الأمريكية . ونظراً لأن المؤلف

كان يدرك أن روايته غير مقبولة للنشر فإنه اقترح نشرها دون أن تحمل اسمه حتى لا تهتز صورته الوقورة كأستاذ فى جامعة كورنيل . لكن دار فايكنج للنشر أعادت إليه روايته عام ١٩٥٤ تحسبا لمحاكمتها أمام القضاء الأمريكى . وفى نفس ذلك العام (١٩٥٤) أرسل المؤلف مخطوطة لوليتا إلى الناقد الأمريكى المعروف إدموند ويلسون فلم يطالع أكثر من نصفها معلقا بأنها ليست فى مستوى أعمال نابوكوف الأخرى التى سبق أن قرأها . وحثه المؤلف أن يقوم بقراءتها بعناية حتى النهاية ، مبينا لإدموند ويلسون أنها رواية أخلاقية رفيعة المستوى . ولم تكن دار نشر فايكنج الوحيدة التى رفضت نشرها فى أمريكا فقد أشاحت بوجهها عنها عدة دور نشر أخرى : الاتجاهات الجديدة وفيراد وشتراوس، إلى جانب الناشر دوبلداى، رغم أن محرر دار النشر الأخيرة كان يحبذ نشرها . ومن ناحيته اعترض الناقد الأمريكي فيليب راهف فى مجلة بارتيزان ريفيو على نشر الرواية دون ذكر اسم مؤلفها لأن هذا سوف يحرم المؤلف من القدرة على الدفاع عنها .

وفى عام ١٩٥٥ فقد نابوكوف الأمل فى نشر لوليتا فى

الولايات المتحدة فأرسل نسخة منها بالآلة الكاتبة إلى وكيلة أعماله فى باريس دوسيا بارجاز . وقبلت دار نشر أولمبيا المعروفة بنشر الكتب الإباحية بنشرها فى باريس شريطة ذكر اسم مؤلفها على الغلاف ، فقبل نابوكوف هذا الشرط . وظهرت لوليتا فى باريس فى شهر سبتمبر ١٩٥٥ ضمن سلسلة الكتب الإباحية التى تصدرها دار أولمبيا للنشر لإرضاء شهوات السواح الإنجليز الذين يسافرون إلى باريس، وبظهور رواية لوليتا فى الأسواق تحمس لها عدد كبير من الكتاب المرموقين فى العالم مثل جراهام جرين الذى نشر مقالا فى عدد الصنداى تايمز الصادر فى لندن فى عيد الكريسماس عام ١٩٥٥ . وسوف نستفيض فى هذه النقطة فى وقت لاحق . والجدير بالذكر أن جراهام جرين تعرض لهجوم الكاتب جون جوردون بسبب تقريظه للرواية ووقوفه بجانب مؤلفها ضد شانئيه . وتناولت صحيفة نيويورك تايمزبوك ريفيو الخلاف الناشئ بين جون جوردون وجراهام جرين كما أن هذه الصحيفة نشرت عددا من الخطابات التى تمتدح الرواية .

وفى عام ١٩٥٦ قامت إدارة الجمارك الأمريكية بمصادرة

نسخ من الرواية المنشورة فى باريس ولكنها ما لبثت أن أفرجت عنها . والجدير بالذكر أن إدارة الجمارك الأمريكية فرضت الحظر مرة أخرى على الرواية . غير أن نابوكوف أجرى فى اكتوبر من هذا العام مفاوضات مع كل من ابشتين وفريد دوبر وميلفين لاسكى المحرر بمجلة أنكور ريفيو لنشر أجزاء من رواية لوليتا فى صحفهم لاختبار رد الجمهور نحوها . وأيضا حدث فى شهر ديسمبر عام ١٩٥٦ أن وزارة الداخلية الفرنسية حظرت رواية لوليتا مع أربعة وعشرين كتابا آخر من مطبوعات دار أولمبيا الباريسية للنشر . ولم يسكت جيرودياس على هذا الإجراء فرفع دعوى أمام القضاء الفرنسى لرفع هذا الحظر وكسبها فى يناير ١٩٥٨ .

وفى صيف ١٩٥٧ قامت مجلة أنكور ريفيو بنشر ما يقرب من ثلث رواية «لوليتا» . وكان هذا فاتحة خير على المؤلف فقد تعاقد معه ناشرون إيطاليون وفرنسيون وألمان وسويديون لنشر ترجمات لهذه الرواية . ولكن دور النشر الأمريكية دوبلداى وماكدويل وأبولنسكى سحبت عروضا لنشر الرواية فى أمريكا عندما طالبها الناشر الفرنسى جيرودياس بتحصيل أكثر من ٦٢٪ من حقوق النشر المستحقة لصالح

نابوكوف .

ولكن بحلول شهر مارس ١٩٥٨ تعاقد الناشر الأمريكى بوتمان لنشر رواية «لوليتا» بحيث يتقاضى المؤلف نابوكوف ٥,٧٪ من سعر الكتاب . كما يتقاضى الناشر الفرنسى جيرودياس نفس النسبة التى يتقاضاها المؤلف .

وعند طرح الرواية في الأسواق يوم ١٨ أغسطس من العام المشار إليه بلغت النسخ المباعة مائة ألف نسخة فى ثلاثة أسابيع وتعاقد نابوكوف في شهر نوفمبر من نفس العام مع شركة هاريس كوبريك للتصوير السينمائى لتحويل رواية لوليتا إلى فيلم نظير مائة وخمسين ألف دولار إلى جانب حصوله على نسبة من الأرباح .

واقترح عليه بعض المشتغلين بالسينما أن يكتب سيناريو للرواية فسافر مع زوجته فيرا إلى لوس انجلوس فى أواخر عام ١٩٥٩ لمناقشة العرض مع مدير الشركة ستانلى كوبريك والمخرج السينمائى جيمس هاريس الذى طلب منه إجراء بعض التغييرات على الرواية ، ولكنه رفض إجراء أية تغييرات عليها .

وفى عام ١٩٥٩ سافر مؤلفنا إلى لندن حيث قابل نصيره

جراهام جرين . وفى انجلترا ألقى محاضرة فى جامعة كامبريدج ثم عاد فى شهر نوفمبر فى العام المذكور إلى لندن للاحتفال بقيام وينفيلد وينكلسون بنشر لوليتا التى نفدت نسختها فور ظهور الطبعة الإنجليزية . وتلقى نابوكوف فى العام المذكور برقية من كوبريك طلب منه فيها كتابة السيناريو السينمائى لرواية لوليتا على النحو الذى يراه مرضيا من الناحية الفنية .

وفى عام ١٩٦٠ قبل نابوكوف عرضا بمبلغ أربعين ألف دولار لكتابة السيناريو السينمائى للرواية بالإضافة إلى ٣٥ ألف دولار إذا اضطلع وحده بكتابة هذا السيناريو . وفى ٩ يوليه من العام السالف الذكر انتهى مؤلفنا من كتابة السيناريو المطلوب . ولكن هذا السيناريو كان أطول مما ينبغى لأنه عرضه كما هو سوف يستغرق سبع ساعات ، الأمر الذى اضطره إلى اختصاره فى ٨ سبتمبر ١٩٦٠.

وفى فبراير عام ١٩٦٢ أخبره وكيل أعماله إرفنج لازار أن هاريس وكوبريك أعدا صياغة النص السينمائى لرواية لوليتا فسافر مؤلفنا مع زوجته فيرا على ظهر الباخرة كوين إليزابيث لحضور حفل افتتاح فيلم «لوليتا» فى مدينة نيويورك

وشاهد عرضاً خاصاً لهذا الفيلم قبيل يوم الافتتاح بأيام قلائل . ورغم أنه قدم التهنئة إلى العاملين فى الفيلم إلا أنه استاء فى قرارة نفسه من كثرة التغييرات التى أجريت على الرواية .

وفى عام ١٩٦٣ توفر نابوكوف على ترجمة لوليتا إلى اللغة الروسية .

والجدير بالذكر أن رواية لوليتا تحولت إلى فيلمين سينمائيين أخرج ستانلى كوبريك أولهما عام ١٩٦٢ . وفيه قام جيمس ماسون بأداء دور شخصية همبرت كما مثلت سوليون دور لوليتا .

وفى عام ١٩٩٧ أخرج أندريان لين الفيلم الثانى وفيه لعب جيرمى ايورنز دور همبرت فى حين مثلت دومينيك سوين دور لوليتا .

نابوكوف يحدثنا عن بذرة الرواية، كيف نبتت ونمت ثم أينعت :

فى ١٢ نوفمبر ١٩٥٦ ذيل المؤلف نابوكوف رواية لوليتا بمقال بعنوان «حول كتاب بعنوان لوليتا» حدثنا فيه عن استخدامه لشخصية الدكتور جون راى الذى كتب تصديرا

لها .

يقــول نــابوكــوف فــى هذا التــذييل إن فكرة هذه الرواية راودته أثناء إقامته فى باريس فى أواخر عام ١٩٣٩ أو أوائل عام ١٩٤٠ عندما كان مـصابا بمرض الفورالجيا (وهو عبارة عن ألم حـاد يصـيب غـالبـا أعـصـاب الرأس والوجـه) . وهبط عليه إلهام أوحى إليه بتـأليف الرواية عندمـا قرأ فى إحـدى الصحف عن قرد فى حديقة النباتات استطاع عالم عن طريقة معاملته بالحسنى واللطف وترويضه اقناعه برسم صورة أو اسكتش تظهر فيه صورة قضبان القفص المحبوس فيه هذا القرد البـائس التـعيس . ورغم أنه لم تكن هناك ثمـة عـلاقـة واضـحـة بين القصـة التى قرأها والتداعـيـات الفكرية التى أثارتها هذه القصـة فى ذهنه فإنها كانت البذرة الأولى التى أوحت إليه بتـأليف رواية لوليتا والتى لم يتجاوز حجمها فى البداية ثلاثين صـفـحة سطرها باللغـة الروسـيـة . وهى اللغـة التى كان يستخدمـها فى تأليف رواياته منذ عام ١٩٢٤ وهى قصص يقول عنها نابوكوف إنها لم تترجم إلى الإنجليزية . فضلا عن أن روسيا فرضت الحظر عليها لأسباب سياسية .

دارت أحداث مـحاولة نـابوكوف الأولى لتـأليفه لوليتـا فى

باريس ومنطقة بروفانس وكانت الصبية المعشوقة فرنسية وليست أمريكية . وفيها يتزوج الرجل واسمه آرثر (وليس همبرت) من أم الصبية المريضة التى سرعان ما تموت . ويبذل آرثر محاولة فاشلة فى اغتصاب الفتاة فى حجرة أحد الفنادق فيقدم على الانتحار بإلقاء نفسه تحت عجلات إحدى الشاحنات . وفى إحدى ليالى الحرب العالمية الثانية قام نابوكوف بقراءة هذه القصة أمام مجموعة من أصدقائه . وهم مارك ألدانوف واثنان من الثوار الاجتماعيين وطبيبة . ولكن القصة لم ترق فى عين مؤلفها فقام بتدميرها بعد هجرته إلى الولايات المتحدة عام ١٩٤٠.

ونحو عام ١٩٤٩ عندما كان نابوكوف فى ولاية إيثاكا الأمريكية عاوده الحافز وألح عليه بدون هوادة لكتابة لوليتا من جديد . الأمر الذى أشعل حماسه وجعله يفكر فى معالجة موضوعها باللغة الإنجليزية ، وهى اللغة التى تعلمها فى طفولته منذ عام ١٩٠٣ على يد الآنسة «راشيل هوم» أولى مربياته فى بطرسبرج . وفى هذه النسخة الجديدة نرى الصبية تنحدر من أصل أيرلندى . وبخلاف هذا لم يكن هناك ثمة فرق بينها وبين الصبية المعشوقة كما رسمها لأول مرة .

وفى هذه النسخة الإنجليزية نشاهد نفس فكرة زواج عاشق الصبايا من الأم طمعا فى القرب من ابنتها التى تأجج فى حقويه شهوة الجنس.

ويعترف نابوكوف أن قدرته على الخلق والإبداع التى كانت فى أوجها أيام إقامته فى أوروبا خبت بعض الشىء مع تقدمه فى العمر وبلوغه سن الخمسين ، الأمر الذى كاد أن يدفعه إلى تدمير مسودة مخطوطته الجديدة .. ولم يمنعه من حرقها هذه المرة سوى إحساسه بأنه سوف يندم على تدميرها طول العمر . وبعد جهد جهيد استطاع نابوكوف الانتهاء من تأليف روايته وتبييضها فى ربيع عام ١٩٥٤ . ثم أخذ يبحث لها عن ناشر . ولكنه قوبل برفض الناشرين وصدودهم .

يقول المؤلف فى معرض حديثه عن التكنيك الروائى الذى استخدمه فى رواية لوليتا بأنه يوحى لمن لا يقرأها حتى النهاية أنه بصدد مطالعة رواية إباحية . وهو إيحاء مضلل يرجع إلى أن المؤلف استخدم تكنيك اليوميات فى بداية روايته. والجدير بالذكر أن أربعة ناشرين أمريكان رفضوا قبول رواية لوليتا للنشر لأنهم اعتبروا موضوعها بذىء حتى

وإن كانت لغتها نظيفة وتخلو من الفحش والبذاءة . وبذلك صنف الناشرون الرافضون رواية لوليتا على أنها تشبه الروايات الفاحشة التى تعالج الزواج بين البيض والسود أو تشبه الروايات التى ترسم صورة للملحد الذى يعيش حياة هنية ومثمرة ويموت أثناء النوم بعد أن تجاوز عمره المائة عام .

يقول نابوكوف إن بعض الناشرين عرضوا عليه إدخال تعديلات على الرواية أشد ما تكون غرابة . فقد اقترحت عليه إحدى دور النشر أن يستبدل لوليتا بصبى فى مثل عمرها (فى الثانية عشرة) يهتك عرضه فلاح يدعى همبرت فى جرف الغلال .

وأيضا شعر نابوكوف بالاستياء من أن البعض اعتبر «لوليتا» رمزا يشير إلى أن أوروبا العجوز تنتهك أمريكا الشابة ، فى حين رأى البعض الآخر أن الرواية ترمز إلى أن أمريكا الشابة تنتهك أوربا العجوز . وكذلك عاب أحد الناشرين على الرواية طول جزئها الثانى . كما أنحى ناشر آخر على الرواية بالملامة لخلوها من الشخصيات الطيبة . وذهب ناشر إلى القول بأن السلطات سوف تزج به وبالمؤلف

فى غياهب السجون فى حالة إقدامه على نشرها .

ويضيف نابوكوف أن بعض النقاد عابوا على الرواية أنها لا تعلم الناس أية دروس . ويرد المؤلف على ذلك بأنه ليس واعظا أو داعية إلى الأخلاق الحميدة . ولكن اهتمامه الأول والأخير ينصب على مراعاة القيم الجمالية . ويشكو نابوكوف من أن بعض الناس يتهمون رواية لوليتا بمعاداة الأمريكان ويعبر عن ألمه الشديد فى هذا الاتهام فهو فى نظره أنكى وأمر من اتهامه بالانحلال الخلقى . يقول المؤلف فى هذا الشأن إنه عندما اختار الفنادق الأمريكية لممارسة همبرت الجنس مع الصبية لوليتا بدلا من الفنادق السويسرية أو الحانات الإنجليزية ، فإن هذا لا يرجع إلى رغبته فى تشويه صورة أمريكا بل إلى رغبته فى أن يشعر بأنه كاتب أمريكى له نفس الحقوق التى يتمتع بها زملاؤه من الكتاب الأمريكان . ويؤكد لنا المؤلف أنه لا يحبذ أو يدعو إلى ممارسة الجنس مع الصبايا حيث إنه يغفر ممارسات همبرت الذى يعتبره فوضويا . ولكن نابوكوف يجد عزاء فى تعاطف كثير من القراء معه .

ويختتم نابوكوف مقاله الذى ذيل به روايته بأن ناقدا

أمريكيا عقب عليها عقب قيام دار نشر أولمبيا الباريسية بنشرها بقوله إن رواية لوليتا تدل على وقوع مؤلفها فى غرام الرواية الرومانسية . ويصحح نابوكوف هذا الرأى فيقول إن لوليتا تسجل وقوعه فى غرام التأليف باللغة الإنجليزية . ويقارن نابوكوف بين تشربه للغة الروسية التى رضعها منذ ولادته وتفوقه فى التعبير بها على نفسه وحذقه للغة الإنجليزية الغريبة عنه بعض الشىء رغم أنه تعلمها منذ نعومة أظفاره على يد مربيته الإنجليزية على نحو ما أسلفنا .

رأى العالم فى رواية « لوليتا » : بريطانيا

يقول الكاتب البريطانى ف . س. بريتشيت إن نابوكوف استخدم فى رواية لوليتا أسلوب الضحك والسخرية .. ذلك الضحك النابع من كراهية الذات ، الأمر الذى يذكرنا بالضحك الذى يتردد صداه فى كتابات الدوس هكسلى وايفلين فوه الهجائية . هذا الضحك يميز لوليتا عن الأدب المكشوف فكتاب الأدب المكشوف لا يعرفون الضحك من ذواتهم . فضلاً عن أنه يفضح حضارة الفنادق والموتيلات والتعليم والمعسكرات الصيفية وأماكن السياحة والعادات الاجتماعية فى الولايات المتحدة . حتى الجريمة التى يرتكبها همبرت فى نهاية الرواية مضحكة رغم فظاعتها .

والرواية تدل على قدرة مؤلفها على التسلل إلى أذهان الفاسدين وتصوير ما يدور بخلدهم . ولا يمكن لهذا الكتاب أن يندرج تحت بند الأدب المكشوف لأن أسلوبه ليس سهلا ولأن كل صفحة فيه تعج بالإشارات الأدبية والتجارب اللغوية واستحداث الكلمات الجديدة . ولن نجد من يفوق مؤلفنا فى جديته فى استخدام اللغة ويصف بريتشيت نابوكوف بأنه

رائع فى تصويره للمناظر الطبيعية بطريقة انطباعية .

ويقول الروائى الإنجليزى الكبير جراهام جرين أن «لوليتا» رواية متميزة .

أما فيليب توينى فيقول إن نابوكوف كتب روايته بأصالة وجمال مذهلين . فضلا عن قدرته على إثارة الضحك على الدوام . ويذهب إلى أن الرواية تتميز بدعابة همجية تثير القهقهة .

وكتب موريس كرناتستون فى المانشستر جارديان يقول إن ألرواية كتاب قوى يثير الانزعاج . وهو يعنى عناية فائقة بتصوير فترة شباب همبرت على نحو فرويدى بتتبعه لجذور تسلط الفكرة الواحدة على عقل الإنسان . فضلا عن أن الكتاب يثير الاهتمام من الناحيتين الأدبية والنفسية . واللافت للنظر بوجه خاص طريقة المؤلف فى استخدام الفكاهة بوجه عام والفكاهة الخشنة بوجه خاص .. بهدف تخفيف التوتر الناجم عن الخوف المرضى من الأماكن المغلقة .

وكتب جورج ميلر فى الديلى اكسبريس يقول : «نحن نرى كل شىء فى هذه الرواية : القسوة - التعليم - الدعابة القوية - حدة المشاعر الرومانسية - الود الحقيقى .

وكتب كينيث ألسوب فى صحيفة الديلى ميل يقول : هذا الكتاب مكتوب بطريقة ساطعة .. وهو يكشف بطريقة مزعجة ومقبضة عما يدور في عقل إنسان منحرف ، كما أنه فى نهاية المطاف يميط اللثام عن درس أخلاقى مروع يكاد يتلخص بطريقة ميلودرامية فى أن الخطيئة تستوجب العقاب .

وكتب برنارد ليفين فى صحيفة الاسبكتاتور «إن رواية «لوليتا» تحتل مكانة دائمة وسامقة فى صدارة قائمة الكتب الأدبية فهى عظيمة وأخلاقية وواثقة الخطى بديعة الشكل تجرى فيها الحيوية الدافقة، فضلا عن أنها تثير الكثير من الضحك».

ويقول اللورد بوفبى فى صحيفة الصنداى ديسباتش إن الكتاب يتضمن إدانة مفزعة للانحراف الذى تعالجه .

ويحدثنا تيرينس راتيجان عن رواية لوليتا فيقول إنه يعتقد أنها غير عادية ومؤثرة ومضحكة جدا وصادقة للغاية . فضلا عن أنها تصدم المشاعر على نحو لا نجده إلا فى أكثر الأعمال ذات الأهداف الأخلاقية السامية . ويهنئ تيرينس راتيجان المؤلف لأنه استطاع انجاز هذا العمل الأدبى العظيم.

خطاب إلى محرر جريدة التايمز منشور بتاريخ ٢٣ يناير ١٩٥٩

سيدى ..

أصابنا الانزعاج عندما علمنا أنه قد يكون من المستحيل طبع الرواية التى ألفها فلاديمير نابوكوف بعنوان «لوليتا» فى الأراضى الإنجليزية. ورغم الاختلاف الكبير فى وجهات نظرنا بشأن قيمة هذا العمل فإننا نعتقد أنه من المخزى أن تحجم بريطانيا عن نشر كتاب له أهمية أدبية بالغة واستقبله النقاد بالحفاوة وأثنوا عليه على نطاق واسع فى المجلات والدوريات الجادة والمحترمة. إن قمع الأعمال الأدبية الصادقة من شأنه أن يحط فى شأن الحكومات التى تمارس هذا القمع . فضلا عن أنه لا يرتقى بالأخلاق العامة وعندما نطالع اليوم تقديم روايتى مدام بوفارى ويوليسيس للمحاكمة فإننا نعبر عن إعجابنا بمؤلفها فلوبير وجويس وليس بالنائب العام الذى حاكمهما آنذاك فلنتخذ فى هذه الحالة من العقل الراجح نبراسا لنا .

الموقعون

ج. ر. أكمولي – والتر ألن – أ. الفاريز – اسحق برلين –

س.م. بورا– ستورم جيمسون – فرانك كيرمود – ألن لين – مارجريت لين – روزا موند ليمان – كومبيتون ماكينزى ايريس ميرودك – وليام بلومر – ف.س. بريتشيت – آلان برايس جونز – بيتر كوتنيل – هوبرت ريد – ستيفن سبندر – فيليب توينبى – برنارد وال – انجوس ويلسون.

الولايات المتحدة الأمريكية

يقول الناقد الأمريكى المعروف ليونيل تريلينج إن رواية لوليتا تدور حول الحب ولا تدور حول الجنس ، ورغم أن كل صفحة من صفحاتها تتناول العاطفة بوضوح أو تتناول فعلا جنسيا مكشوفا إلا أن الرواية رغم ذلك تعالج الحب ولا تعالج الجنس، وهذا ما يجعلها فريدة من نوعها بالمقارنة بالروايات المعاصرة ، ويضيف ليونيل تريلينج إلى ذلك قوله إنه لا يجد فى الروايات المنشورة حديثا كل هذا الحنان المصاحب للحب مثل ذلك الحنان الذى يحمله همبرت للوليتا التى يصورها المؤلف بكل ما يملكه من رقة ولطف.

والرواية فى نظر هذا الناقد تمثل تجسيدا نادرا للنشوة فى مجال الكتابة الحديثة كما أنه يرى أن جاذبيتها تكمن فى الغموض الذى يكتنف مقصدها ، فضلا عن قدرتها على إثارة

الشعور بعدم الارتياح وجعل قارئها يفقد توازنه .. كما أن الرواية تتطلب من قارئها تغيير موقفه وتحريك موضعه فهى لا تعطيه فرصة للاستقرار على وضع ما . ولعل ما يميز قدرة هذه الرواية على تمثيل بعض مناحى الحياة الأمريكية مرده ذلك التغير الأخلاقى العجيب الذى تفرضه على القارئ .

ويذهب تايلور كالدويل إلى أن الكاتب الفكاهى الإغريقى أرستوفان لم يكتب الكوميديا بمثل هذا السحر والجاذبية ومثل هذه القدرة على التدمير المرير الساخر . وينصح كالدويل الأطفال ابتداء من سن الثامنة حتى سن الثمانين بعدم قراءة هذه الرواية ، فهى توجه لهيبها المدمر إلى كل أنواع المتعة الأمريكية .. الاستمتاع بأشعة الشمس وسمرة البشرة الناجمة عنها وجميع المتع الطفولية المادية التى تثير الغثيان ولا يكف الشباب المراهق الأمريكى عن الاستمتاع بها على الدوام. ويختتم كالدويل نقده بقوله إنه كان يتوق أن يسمع أن أحداً آل على نفسه أن ينسف هذه الثقافة الضحلة المتمثلة فى الإيمان بعش الزوجية الجادة وحب الأطفال إلى درجة العبادة والتربية التقدمية المؤمنة بالتحسن المطرد أو الزيادة المطردة ، وها نحن نرى رواية لوليتا تنسفها ونرجو

أن نرى المزيد من هذه الكتابات الناسفة للحضارة الضحلة .

ويقول جيمس م. كين إن لوليتا كتاب مرموق وأن ناشرها يستحق الثناء العاطر .

وكتب مايرليفن يقول إنه يعتبر قراءة رواية لوليتا أكثر القراءات إثارة فى مجال الرواية الحديثة منذ ظهور رواية يوليسيس لجيمس جويس . وينبغى علينا العودة إلي رواية يوليسيس إذا شئنا أن نجرب شعوراً مماثلا بالجدة والصدق.

وتصف دوروثى باركر لوليتا بأنها كتاب بديع ومتميز عظيم.

وكتبت جين بارو فى جريدة نيويورك هيرالد تريبيون تقول : «إن نابوكوف لا يجعل الشر جذابا. وبطل روايته يتأرجح بين المثالية والشك فى نوايا الآخرين وفيض العواطف المسلوبة وهو يدرك عن طريق حياته الزائفة زيف الحياة والقيم المحيطة به» ولغة الرواية تنبض بالحياة وهى تتميز برسوخ شخصياتها كما أن مصائرها الاجتماعية تتسم بالذكاء المعوج والملتوى . وفى رواية نابوكوف نجد أن كل شىء مصطنع وزائف باستثناء العذاب الإنسانى وما يتضمنه الفن من عزاء .

ويقول جرانفيل هيكس فى مجلة ساترداى ريفيو : «إننى على يقين من أن المستقبل سوف يبرئ لوليتا من تهمة الأدب المنحل مثلما برئت رواية يوليسيس تماما من هذه التهمة» ..

وكتب لويس فوجلر فى صحيفة فرانسيسكو كرونتيل أن بعض الناس يعتبرون لوليتا خادشة للحياء . ولكنها فى الحقيقة عمل فنى صادق يستجيب له القارئ مباشرة كما أنه يدعو إلى إعمال الفكر الجاد . وكذلك يصفها فوجلر بأنها كوميديا الفظائع . أما مجلة التايم الأمريكية فتصف «لوليتا» بأنها عمل روائى عظيم غير أنها تحفة فنية صادمة للمشاعر رغم أن صفحاتها تكاد تخلو من التفاصيل الجنسية التى يزخر بها الأدب الروائى الرائج . ولا غرو فرواية نابوكوف تخلو من الكلمات البذيئة والنابية، بل إنها تتسم بالطابع الغنائى رغم كل ما تتضمنه من فكاهة . ويرى فوجلر أن شاعرية الرواية سوف تخيب ظن الباحثين عن المتعة الرخيصة.

والرأى عند شارلس رولو كما عبر عنه فى مجلة هادبر أن رواية لوليتا تؤكد سلطان روح الفكاهة وقدرتها على استخلاص وانتزاع البهجة والحقيقة من أشد الأمور غرابة ،

ويذهب رولو إلى أنها من أكثر الروايات الجادة مبعثا للفكاهة.

فرنسا

يقول دومينيك أورى فى المجلة الفرنسية أن لوليتا ليست رواية فاضحة بل تحفة أدبية رائعة .

ويذكر كلود جولين فى صحيفة «الموند» : «بخلاف الروايات الأمريكية المعاصرة نجد أن رواية لوليتا لا تحتوى على وصف للممارسات الجنسية كما أنها لا تستخدم أية كلمات بذيئة . فقد كرس نابوكوف روايته بأكملها لوصف الآمال والعواطف والآلام التى يكابدها ذلك الرجل الناضج «همبرت» الذى يصير عبدا للطفلة التى يهيم بحبها، وأغلب الظن أن هذه العواطف أكثر مدعاة للانزعاج فى تصوير أكثر الممارسات الجنسية واقعية .

ويذهب كليبر هايدنز في مطبوعة «باريس بريس» إلى أن لوليتا تفرض على قارئها رؤية جديدة حادة وحساسة عن طريق خليطها المدهش من السخرية والعمق والفكاهة والعاطفة والقلق . وهى رواية تتسم بشدة الذكاء . ولعل هذا هو السبب فى كونها صادمة للمشاعر .

ويقول روبرت كمب فى مجلة أخبار أدبية إن لوليتا عمل

فنى ناعم مدهش مكتوب بأسلوب يدعو للتعجب وبدقة وعناية تكاد تصل إلى المبالغة فى التأنق.

ألمانيا

كتب توماس كارل فى صحيفة سونتا جيبلات يقول : «إن خيبة الأمل سوف تصيب قراء رواية لوليتا الذين يتوقعون منها أن تكون أدبا مكشوفا وفاضحا. ويرى الكاتب كارل أن المؤلف نابوكوف ينتج أدبا رفيع المستوى وأن روايته تنم عن تأثره بكل من بو، وبودلير وأنه كتب روايته كفنان وشاعر يستخدم السخرية التى تروق لجميع شعوب الأرض. والرأى عند كارل أن لوليتا قصة حب رومانسية وليست قصة حب واقعية كما أنها ليست قصة فى التحليل النفسى تدور أحداثها حول الجنس . وهى رواية لا يمكن لقارئها أن يفهم مغزاها الكامل على الفور لأنها تثير مشكلات عديدة وفى الغالب تتركها معلقة فى الهواء دون حل . وهى بكل تأكيد ليست أدبا مكشوفا كما أنها بكل تأكيد ليست رواية أخلاقية تهدف إلى الوعظ والإرشاد على حد زعم بعض النقاد ، والنقطة المؤكدة والثابتة التى تتناولها هذه القصة غير المريحة، وغير التقليدية على الإطلاق تتركز فى انحراف

همبرت واستغراقه فى الذاتية بلا حدود . ويقول توماس كارل إنه من المؤكد أن المؤلف نابوكوف استطاع أن يصهر كل هذا فى قطعة فنية متميزة يخطف سناها الأبصار.

إيطاليا

ويصف ألبرتو مورافيا رواية لوليتا بالجمال الشديد فى حين وصفها إليو فيتورينى بأنها بديعة للغاية ، ويضيف فيتورينى بأن الجهلاء أو البلهاء هم الذين يجدون فى لوليتا شيئا بذيئا وفاضحا.

سويسرا

كتبت جين لوك ميشيل فى جازيت لوزان تقول : «دعنى أضيف على الفور أن هذه الرواية لا تحتوى على فقرة واحدة منافية للآداب أو كلمة واحدة خشنة أو خادشة للحياء وأن ما فيها من اشتهاء جنسى ينبع من فنها الروائى وحده» .

النرويج

كتبت إولنج كريستى فى أفتنبوستن تقول : «من العبث أن نحاول تجاهل ما فى رواية لوليتا من أسباب النفور والوجيعة، كما أنه من العبث إنكار مافيها من جمال. وإنها لمفارقة أن تجمع رواية لوليتا بين أسمى أنواع الجمال وأروع أنواع

التعبير الساطع عن الحب فى الأدب الحديث. وإذا أراد المرء أن يرى فى الرواية ما يتجاوز كونها ملحمة فى الحب والغرام فيمكنه أن يرى فيها أعظم درجات الهجاء المعاصر اللاذع والمرير» .

(فنلندا)

كتب هيلى بروزيروس فى صحيفة «سوف كوفالهتى» .. يقول إن لوليتا تحفة روائية ودراسة عميقة تفوق حد التصور فى التحليل النفسى كما أنها بديعة من الناحية الوصفية ، لقد قيل عنها أنها أكثر الكتب مدعاة للكآبة ولكنها فى الوقت نفسه أكثر الكتب مدعاة للتسلية .

وأيضا كتب توم كريستنسن فى صحيفة بوليتكن عن تأثر فلاديمير نابوكوف بكل من جيمس جويس وت.س. إليوت، وهو يستطيع محاكاة ت.س. إليوت فى منتهى السهولة واليسر .. فضلا عن أن الرواية كابوس من الخداع واللؤم وجنون الاضطهاد . وهى لعب على أوتار العواطف المكثفة والدعابة البائسة والسخرية الدرامية .

لقد سبق أن ذكرنا أن الكاتب الإنجليزى الشهير جراهام جرين وصف «لوليتا» بأنها من أفضل الروايات التى قرأها

عام ١٩٥٥ فرد عليه كاتب فى صحيفة صنداى أكسبريس اللندنية بأنها أقذر كتاب طالعه فى حياته. وكانت نتيجة ذلك أن الفزع تملك وزارة الداخلية البريطانية فأمرت مصلحة الجمارك بعدم السماح للرواية بدخول الأراضى البريطانية .

والجدير بالذكر أن نابوكوف اعترف بأن رواية «لوليتا» أثيرة إلى قلبه أكثر من الكتب الأخرى التى ألفها باللغة الإنجليزية وقد صرح بذلك فى المقابلة التى أجراها معه التليفزيون البريطانى عام ١٩٦٢ حيث قال : «لوليتا أثيرة إلى قلبى ، وهى أكثر كتبى عسرا وصعوبة فى تأليفها .. ذلك الكتاب الذى يعالج أكثر الموضوعات نأيا عنى وعن حياتى العاطفية لدرجة أنى سعدت سعادة خاصة أنى حشدت لها كل موهبتى لتحويل الرواية إلى شىء حقيقى» .

وبعد مرور عامين نشرت مجلة بلاى بوى عام ١٩٦٤ حديثا مع نابوكوف قال فيه : «لن أندم ما حييت على تأليف رواية لوليتا فهى أشبه ما تكون بفزورة جميلة فى تكوينها وحلها فى آن واحد لأن تكوينها وحلها يشبهان مرآتين تعكس كل مرآة منهما الأخرى وفقا لموقع الرؤية والمشاهدة . وبطبيعة الحال حجبت رواية لوليتا جميع مؤلفاتى الأخرى

على الأقل تلك التى كتبتها باللغة الإنجليزية مثل «حياة الفارس سناستيان الحقيقية ومايفل الشرير» وقصصى القصيرة وذكرياتى . ولكن هذا لم يضايقنى مطلقا» .

مصادر رواية لوليتا :

فى عام ١٩٨٥ ظهرت بعد وفاة نابوكوف ترجمة إنجليزية لقصة طويلة كان قد ألفها باللغة الروسية أثناء فترة إقامته فى فرنسا عام ١٩٣٩ ثم تطورت فيما بعد لتصبح لوليتا التى سطرها نابوكوف باللغة الإنجليزية كما سبق لنا أن ذكرنا . غير أن أحداث القصة الروسية لم تحدث فى أمريكا بل حدثت فى وسط أوروبا . وطبقا لهذه القصة الطويلة التى ألفها نابوكوف باللغة الروسية حاول بطلها أن يقيم علاقة جنسية ببنت زوجته ولكنه لم ينجح فى ذلك،الأمر الذى دفعه إلى الانتحار على نحو ما أسلفنا.

وأيضا تناول نابوكوف عشق الصبايا فى قصة قصيرة سبق أن ألفها بعنوان «حكاية حضانة الأطفال» ، كما أننا نجد معالجة لنفس هذا الموضوع فى عام ١٩٣٢ فى قصة له بعنوان «ضحكة فى الظلام» تدور حول رجل فى منتصف العمر يقع فى غرام فتاة فى السادسة عشرة تدعى مارجوت

بيتــرز ونحن نرى المؤلف يضــمن الفـصـل الثـالث من رواية «الهدية» التي ألفها باللغة الروسية في الفترة من ١٩٣٥ حتى ١٩٣٧ في الفصل الأول من روايته لوليتا الإنجليزية .

وفي إبريل ١٩٤٧ كتب نابوكوف إلى إدموند ويلسون قائلا : «أكـتب الآن رواية قـصـيـرة عن رجل يعـشق الفـتـيـات الصـغـيـرات بعنوان «مملكة قريبة من البحر» .. وفي نهاية المطاف قام نابوكوف في خلال الثمانية أعوام اللاحقة بتطوير هذه القصة وتحويلها إلى رواية «لوليتا» .

والجـدير بالذكـر أن رواية لولـيـتـا تتـضـمن إشـارات إلى أعمال أدبية لمؤلفين آخرين مما يدل على تأثرها بهذه الأعمال. فـعلى سبيل المثـال استـقى نابوكـوف اسم أول فـتـاة يحـبـهـا همبرت همبرت وهي أفابيل لي من قصيدة نظمـها إدجار آلان بو بعنوان أفـابيل لي . فـضـلا عن أن هـمـبـرت همـبـرت مـتـخـصـص في الأدب الفـرنسي وأن عـمله تلخص في تـأليف سلسلة من الكتب التعليمية التي تعـقـد مقارنات بين الكتاب الفرنسيين والكتـاب الإنجليـز ، فـلا غرو أننا نطالع في رواية لوليـتـا إشـارات إلى أعلام الأدب الفـرنسي أمثـال جوسـتـاف فلوبيرت ومـارسـيل بروست وفرانسوا رابيليه وشـارل بوديلير

وميرميه وريمى بيلو وبيير دى رونسارد.

وفى الفصل السابع عشر يقتبس همبرت بيتا من قصيدة «تشايلد هارولد» للورد بيرون. وفى الفصل الخامس والثلاثين من الجزء الثانى نجد أن حكم همبرت همبرت بالإعدام على غريمه كويلتى محاكاة لتكرار الكلمات فى بدايات أبيات الشعر كما نجده في قصيدة أربعاء الرماد، للشاعر ت. س. إليوت.

ونجد أن أحد أبيات القصيدة التى ألفها همبرت مأخوذ عن قصيدة لورانس ستيرن التى تحمل عنوان «رحلة عاطفية فى كل من فرنسا وإيطاليا» .

ويذهب الكسندر دولينين إلى أن نابوكوف استقى شخصية لوليتا من فتاة فى الحادية عشرة اسمها فلورنس هورنر وقعت فى أسر ميكانيكى فى الخمسين من عمره اسمه فرانك لاسال الذى ضبطها وهى تسرق كراسة لا يزيد ثمنها على خمسة سنتات، واصطحب هذا الميكانيكى الفتاة فى تنقلاته من ولاية إلى أخرى على مدى ٢١ شهرا . ويعتقد أنه كان يبتزها ويهددها بالتبليغ عنها حتى ترضخ لمعاشرته الجنسية . وقد صرح هذا المغتصب أنه يعمل فى مكتب

التحقيقات الفيدرالية .. يقول دولينين فى هذا الشأن إن قضية هورنر كانت معروفة على نطاق واسع ويؤكد وجود أوجه شبه بين أحداث لوليتا وأحداث هذه القضية . علما بأن رواية نابوكوف لوليتا تشير إلى بعض تفاصيل هذه القضية فى الفصل الثالث والثلاثين.

ويذكر الباحث الأكاديمى الألمانى ميشيل مار فى كتابه «فتاتان باسم لوليتا» إنه اكتشف مؤخرا قصة قصيرة منشورة عام ١٩١٦ باللغة الألمانية بعنوان «لوليتا» وهى تتناول رجلا فى منتصف العمر يسافر إلى الخارج حيث يستأجر حجرة فى منزل . ويقع هذا الرجل فى غرام صبية صغيرة تعيش فى نفس المنزل . ويرجح الباحث الألمانى أن نابوكوف (الذى عاش فى نفس المنطقة التى عاش فيها مؤلف قصة لوليتا الألمانية هاينز فون اشويج) كان على علم بالقصة الألمانية وقد نشرت صحيفة محقق فيلادلفيا مقالا بعنوان «لوليتا عند بلوغها الخمسين .. هل كان نابوكوف يأخذ حريته الأدبية ؟» جاء فيه أن مار ينفى عن نابوكوف تهمة السرقة الأدبية فهو يقول : «الأدب على الدوام بوتقة هائلة تصهر وباستمرار – تعيد صياغة الموضوعات المألوفة من جديد .

ونحن لا نرى ما يثير إعجابنا فى القصة الألمانية موجودا فى رواية لوليتا الإنجليزية ، وليس هناك فى رواية لوليتا التى ألفها نابوكوف ما يذكرنا بلوليتا الألمانية» .

والجدير بالذكر أن نابوكوف نشر روايته «لوليتا» فى باريس عام ١٩٥٥ ليس لأن القوانين الأمريكية حظرت نشرها ولكن لأنه لم يجد ناشرا أمريكيا يجرؤ على نشرها. والرواية كما ذكرنا تخلو من البذاءة والفحش فى القول أو الفعل على عكس رواية د. هـ. لورانس «عشيق الليدى تشاترلى» ورواية هنرى ميلر «مدار السرطان» وتصادف صدور رواية نابوكوف فى فترة حرجة فى تاريخ الرقابة فى كل من انجلترا وأمريكا حيث استنت تشريعات جديدة تخفف من القيود المتشددة وتتجه إلى السماحة . ومن الغرابة أن فرنسا التى كانت أول من قبل نشر هذا الكتاب هى التى قامت بحظره فى وقت لاحق . وكما أسلفنا فإن الحظر الذى تعرضت له رواية لوليتا لا يرجع إلى فحش لغتها وأحداثها بل يرجع إلى فحش موضوعها، الأمر الذى يذكرنا بإحدى روايات رادكليف هول.

ويمكن القول إن حظر رواية لوليتا لم يكن حظرا بالمعنى التقنى يرجع إلى أسباب قانونية أو قضائية بل يرجع إلى

أسباب اقتصادية تتمثل فى الخوف من الحصار والمقاطعة وتكبد الخسائر المالية الفادحة الناجمة عن ممارسات جماعات الضغط . ويتجلى هذا فى قيام هوليود بتحويل الرواية إلى فيلم فى عام ١٩٦٢ فقد فشل مخرج الفيلم أدريان لين أكثر من ثلاثين عاما فى العثور على موزع لفيلمه ، أى أنه عجز عن تسويقه فى أمريكا حتى عقد التسعينيات من القرن العشرين فى حين أن أوروبا سمحت بعرض هذا الفيلم فى أراضيها . والجدير بالذكر أن لوليتا تحولت مرتين إلى فيلم سينمائى .

سبق أن ذكرنا قول نابوكوف أن الشعب الأمريكى لا يمقت شيئا قدر مقته لثلاثة موضوعات هى: الزواج المختلط بين البيض والسود ومعاشرة الصغيرات وتصوير الملحد بأنه يحيا حياة سعيدة ومفيدة. غير أن كراهية الشعب لمواقعة الصغيرة تفوق كراهيته للممارستين الأخريين . والدليل على ذلك أن القانون الأمريكى الذى يؤثم زواج السود من البيض ألغى عام ١٩٦٧ كما أن الإلحاد لم يعد ذلك الشىء المروع مثلما كان فيما مضى . غير أن مضاجعة الصغيرات ظلت تثير مقت الأمريكان واشمئزازهم، شأنها فى ذلك شأن الشذوذ الجنسى . وشغلت القضية المعروفة باسم جون

بينيت رافرى – التى اتهم فيها هذا الرجل بمعاشرة صبية أصغر فى العمر من لوليتا، أى أصغر من الثانية عشرة– الرأى العام الأمريكى لمدة تصل إلى نحو عقد من الزمان . ومنذ وقت قصير . انصرفت شبكة الانترنت إلى متابعة أخبار الموسيقى والمغنى المعروف مايكل جاكسون المتهم بغواية الاطفال .

ولا يقتصر اهتمام الرأى العام بمشكلة معاشرة الصغار على بلد دون الآخر ففى أواخر التسعينيات، تعرضت للقمع فى فرنسا رواية بعنوان «حلوى الورد» لأن الرقيب اشتم منها رائحة الدفاع عن ممارسة الشذوذ الجنسى مع الأطفال. والصغيرات موضع المواقعة لسن بالضرورة باهرات الجمال . والرأى عند نابوكوف أن الشخص العادى ليس مؤهلا لاكتشاف مثل هؤلاء الصغيرات فهو يقول إنه يتعين على المرء حين يكتشفهن أن يكوى فنانا ملتاث العقل ويسرى فيه خوف بلا حدود وفى حقويه دمل يحتوى على سم ساخن وشهوانية كاسحة، تتوهج فى عاموده الفقرى وتلهبه .. وهكذا نجد أن نابوكوف لا يفرق بين هذا العاشق الملتاث والمجرم المعتوه.

والجدير بالذكر أن جورجياس صاحب دار نشر أولمبيا الباريسية وناشر لوليتا أعطى بكل فخر واعتزاز نسخة من رواية نابوكوف لهنرى ميلر فإذ بميلر يزود عنها . ويصفها بأنها أدبية أكثر من اللازم . علما بأن نابوكوف شبه نفسه بفلوبيرت الذى ذرق الدمع سخينا عند تصويره منظر احتضار مدام بوفارى، التى انتحرت بالسم . ويرى بعض الدارسين أن هناك أوجه شبه بين روايتى لوليتا ومدام بوفارى فالبطل همبرت همبرت فى الأولى وايما بوفارى فى الثانية شخصيتان تجمعان من الجاذبية والتنفير فى نفس الوقت . فضلا عن كلا الكاتبين فلوبرت ونابوكوف وصفا كلتا الروايتين بأنهما أخلاقيتان برغم إيمانهما بأن الفن أسمى من الأخلاق بمفهومها الدارج، بل هى شىء منفصل عنهما . قال نابوكوف فى الحديث الذى نشرته مجلة باريس ريفيو عام ١٩٦٦ حول بذاءة العلاقة الجنسية بين رجل فى الأربعينيات وبنت صغيرة فى سن بناته (إشارة إلى العلاقة الجنسية بين همبرت همبرت ولوليتا) :

أنا لا أحس بانحلال وبذاءة العلاقة بين همبرت همبرت ولوليتا فهذا الأمر شغل بال همبرت وحده ولا يشغل بالى .

فأنا لا أقيم أدنى وزن للأخلاق العامة السائدة فى أمريكا أو أى مكان آخر .. ثم وصف نابوكوف يقول إن المشكلة ليست مجرد زواج رجل فى الأربعين من فتاة لم تبلغ العشرين من عمرها أو بلغت أوائل العشرينيات كما يحدث فى الحياة اليومية .. المشكلة تكمن فى حب همبرت للأطفال من الإناث وليس للشابات .

وعندما اصطدم الناشر الفرنسى موريس جيروديياس بالحكومة الفرنسية؛ بسبب نشره رواية لوليتا وواجه المشاكل القانونية طلب من نابوكوف أن يتضافر معه فى الدفاع عن مضمون الرواية الأخلاقى ولكن نابوكوف رفض قائلا : «إن دفاعى الأخلاقى عن الكتاب هو الكتاب نفسه» ثم ما لبث أن أضاف : «وعلى الصعيد الأخلاقى لست أكترث برأى المحاكم الفرنسية أو البريطانية، أو غيرها من المحاكم كما أنى لا أكترث برأى عامة القراء فى الكتاب» . ولعل السبب الآخر الذى منعه من التضامن مع دار نشر أولمبيا من مقاضاة الحكومة الفرنسية هو رغبته فى عدم إحراج جامعة كورنيل التى كان يحاضر فيها .

ومن ناحية التكنيك الروائى يلاحظ أن رواية لوليتا لا

تبدأ بسرد الأحداث المتتابعة، بل تبدأ بالنهاية ثم تمضى الى سرد البداية . وهذا واضح من التصدير الذى سطره الباحث الأكاديمي الوهمي جون راى الذى اخترعه المؤلف . فقبل أن نعرف قصة همبرت نعلم من التصدير أنه توفى فى السجن قبل تقديمه للمحاكمة . ولاشك أن التصدير فى حد ذاته يتضمن عبرة ودرساً أخلاقيا . فالجاني همبرت يلقى جزاء فعلته الشريرة . ومن الجائز أن نابوكوف التجأ إلى هذه الحيلة الروائية المتمثلة فى التصوير حتى يتفادى قيام السلطات الأمريكية والبريطانية بحظر روايته . وهناك وجه شبه بين التكنيك السردى الذى اتبعه كل من فلوبرت ونابوكوف فأيما بوفارى تموت عقاب لها على ما ارتكبته من ذنوب ، كما أن همبرت يموت عقابا له على جريرته . ولكن بعض النقاد يرون أن انتحار مدام بوفارى بالسم عقاب أشد وأنكى مما كانت تستحق ، فى حين أن وفاة همبرت بجلطة فى القلب وهو فى السجن ينتظر محاكمته عقاب هين خفيف بالنسبة للجريمة الشنعاء التى اقترفها .

ويذهب الناقد الأمريكى المعروف ليونيل تريلنج فى عام ١٩٥٨ الى أنه ليس هناك بين عشاق الروايات الحديثة من

يفوق همبرت فى حنوه ورقة مشاعره ولطف عواطفه نحو لوليتا . ومن الواضح أن همبرت لا يطيق معاشرة النساء الناضجات سواء كانت زوجته الأولى فاليزيا التى حولتها الأيام من فتاة ناحلة الى امرأة بدينة وناقصة العقل . كما أنه لم يكن يطيق معاشرة زوجته الثانية شارلوت هاز أم لوليتا تلك البنت الصغيرة التى غلبته على أمره بجاذبيتها التى لا تقاوم وتجمع بين نقيضين البراءة والشيطنة . ويشترك نابوكوف وفلوبيرت وأوسكار وايلد فى رأى مفاده عدم وجود أية علاقة بين الفن والأخلاق . يقول نابوكوف فى هذا إن العمل الفنى ليست له ثمة أهمية اجتماعية . ثم يضيف إلى ذلك قوله إنه لايكترث بالشعار الذى ينادى به أوسكار وايلد وأترابه من الشعراء المتأنقين، وهو شعار الفن للفن بل إن نابوكوف يتهم أوسكار وايلد بالسماح للأخلاق بالتسلل إلى العمل الفنى من الباب الخلفى . ومما يزيد موقف نابوكوف من الفن تعقيدا أنه يتبنى مواقف متناقضة . تجمع بين الأخلاق والانحلال مثلما نجد فى موقف همبرت المتأرجح بين الاحتفاء بالأخلاق والتنكير لها . فضلا عن أنه فى أحيان أخرى يتخذ موقفا أخلاقيا صرفا

مثلما يفعل الدكتور راى فى التصوير .

ويحرص نابوكوف على عدم مطالعة القراء لروايته على أنها رواية واقعية ولهذا نراه يحشوها بالإشارات الأدبية مثل إشارته الى دانتي وبياتريس وبترارك ولورا وادجار ألن بو الخ، فضلا عن إشاراته إلى لويس كارول وبروست الذى يحظى بتبجيل المؤلف ، كما أن هناك إشارات إلى دستيوفسكى وميرميه . والجدير بالذكر أن هناك طبعة خاصة من رواية لوليتا ملأها المحرر الفريد أبيل بالشروح والحواشى التى تحصر جميع الاشارات الأدبية التى تعج بها الرواية للحيلولة دون قراءة «لوليتا» على أنها رواية واقعية .

والأمر الآخر الذى يقلل من واقعية الرواية وقوع كثير من المصادفات فيها . وعلى أية حال ترى النقاد يختلفون فيما بينهم اختلافا فنيا فى مواقفهم المتضاربة من واقعية الرواية . فعلى سبيل المثال يوضح الخطاب الذى أرسله الناقد إدموند ويلسون إلى نابوكوف عام ١٩٥٤ أنه لا يؤمن بواقعية لوليتا فهو يكتب إلى المؤلف فى هذا الشأن قائلا : «إن المطبوعات السيئة قد تصنع لنا كتابا بديعا . ولكنى لا

أشعر أنك وقعت فى ذلك . شخصيات الرواية ومواقفها ليست كريهة فى حد ذاتها فحسب ولكنها تبدو عند تقديمها على هذا النطاق غير واقعية على الإطلاق» . ومعنى هذا أن الناقد إدموند ويلسون اعترض على رواية لوليتا لأنها غير أخلاقية من ناحية، وغير واقعية من ناحية أخرى . فضلا عن أن الناقد ويلسون قال لناشر الرواية الأمريكي جاسون ابشتين انها منفرة . ولعلنا نذكر أن ادموند ويلسون عرض الرواية على زوجته الروسية إلينا وزوجته السابقة الكاتبة مارى مكارثي. ويتضح لنا من ردود فعلهما أن زوجته الروسية عبرت عن عظيم حبها وتقديرها للرواية - واقترحت نشرها خارج الولايات المتحدة ثم إدخال نسخ منقحة ونظيفة منها داخل الأراضى الأمريكية . أما زوجته السابقة مارى مكارثي فرأت أن الرواية غامضة . ثم قام ويلسون بإرسال ردود فعل زوجته المتباينة إلى الناشر .

لقد فرضت الحكومة الفرنسية الحظر على رواية «لوليتا» مرتين كانت المرة الأولى عام ١٩٥٧ بإيعاز من وزارة الداخلية البريطانية التى خشيت من تسلل الرواية من فرنسا إلى بريطانيا . ولكن الناشر الفرنسى قام بمقاضاة

الحكومة الفرنسية وجاء حكم المحكمة لصالحه فقامت السلطات الفرنسية برفع الحظر عنها . وبعد مرور شهور سقطت جمهورية فرنسا الرابعة عام ١٩٥٨ واعتلى ديجول سدة الحكم فاستأنفت السلطات الحكومية ضد الحكم الصادر لصالح الناشر جوردياس . وتمكنت هذه السلطات من فرض الحظر على رواية لوليتا للمرة الثانية . وفى ذلك الوقت كانت دار نشر جاليمار ذات السمعة الطيبة تستعد لنشر ترجمة فرنسية لرواية لوليتا حيث إن دار أولمبيا للنشر نشرت رواية نابوكوف بلغتها الانجليزية الأصلية. واشتكى جورديا س صاحب دار نشر اولمبيا من فرض الحظر على أصل الرواية الانجليزية فى حين أن السلطات الفرنسية سمحت للناشر جاليمار بنشر ترجمة فرنسية لها . وخشيت وزارة الداخلية الفرنسية على نفسها من الشوشرة بسبب تضارب مواقفها فاستدعت الناشر جورديا س؛ للتفاوض معه ووعدته برفع الحظر على الرواية فى نصها الأصلى الانجليزى مقابل تنازله عن المطالبة بتعويضات وهكذا ظهر فى الأسواق النص الانجليزى للرواية كما كتبه نابوكوف والترجمة الفرنسية لها كما نشرها جاليمار .

وفى أغسطس ١٩٥٨ ظهرت طبعة بوتمان الأمريكية لرواية لوليتا فى الأسواق، فطبقت شهرتها الآفاق وذاعت فى كل مكان الأمر الذى يذكرنا بتوزيع رواية «ذهب مع الريح» الكاسح فى عام ١٩٣٦ . ولكن لم تمض شهور حتى نشر باسترناك روايته المعروفة «الدكتور زيفاجو» فغطت على رواية «لوليتا» . وتفاوتت ردود فعل القارئ الأمريكى لرواية نابوكوف بين المديح واللعنة والحيرة كما سبق أن ذكرنا .

وفى ١٧ أغسطس من عام ١٩٥٨ نشرت اليزابيث جين واى مقالا فى مجلة «الصنداى بوكس ريفيو»، جاء فيه أن رواية «لوليتا» مقززة وتدعو إلى الغثيان وأن رقى أسلوبها يجعل منها نوعا راقيا من الأدب المكشوف . ورد عليها أورفيل برسكوت بالقول إن أسلوبها الراقى لا يقلل من تقزز القارئ منها .

وأيضا تدل المقالات المنشورة فى صحيفة التايمز البريطانية على أن موقف القراء من «لوليتا» تأرجح كما أسلفنا بين التقريظ والإدانة والحيرة، وأشادت دوروثى باركر بالرواية فى مجلة اسكواير ووصفتها بأنها كتاب بديع

وممتاز وعظيم .

وفى بريطانيا اشترى الناشر وينفيلد - نيكلسون من نابوكوف حقوق النشر والتوزيع ولكنه آثر الانتظار لحين إدخال التعديلات الخاصة بقوانين الأدب البذيء وعرضها على مجلس العموم لمناقشتها وإقرارها . وعلى أية حال لم يقدم الناشر الانجليزى على نشر الرواية الا بعد أن أبلغه موظف بوزارة الداخلية البريطانية بأن الوزارة لا تمانع فى نشرها .

وعندما فكر العاملون في صناعة السينما فى تحويل رواية «لوليتا» إلى فيلم انزعج نابوكوف واعترض على قيام طفلة من دم ولحم بتمثيل دور لوليتا، وطلب إسناد الدور إلى امرأة قزم . وزاد من حرج المؤلف أن ستانلى كوبريك وجيمس هاريس طلبا منه إعداد سيناريو الفيلم المقترح . وكان حرج المؤلف طبيعيا للغاية نظرا للصعوبات التى تكتنف إخراج هذا الفيلم مقارنة بسهولة طبع الرواية من دفتى كتاب حيث إن موضوع الرواية شائك بطبيعته فهو يتناول عشق الكبار للأطفال . واضطر كوبريك وهاريس إلى استشارة الرقابة . ولم يجد مخرج الفيلم مخرجا من ورطة

معاشرة الأطفال الا أن يعقد همبرت زواجه من لوليتا بعد وصولها إلى سن النضوج وأن يشهد على هذا الزواج ويباركه قريب راشد .

لقد سبق أن رأينا منتقدى نابوكوف يوجهون إليه تهمة التشهير بأمريكا الأمر الذى جعله يدافع عن نفسه بقوله إن دافعه من وراء تأليف لوليتا يرجع إلى حبه للغة الانجليزية ورغبته فى أن يشعر أنه كاتب امريكى كغيره من الكتاب الأمريكان . ومن ثم يمكن القول إنها مفارقة ما بعدها مفارقة، أن يغادر نابوكوف الولايات المتحدة بعد نشره لوليتا ليعيش مع زوجته فى أحد فنادق سويسرا الفخمة حتى آخر العمر .

نعود إلى تحويل الرواية الى فيلم فنذكر أن كوبريك وهاريس لم ييأسا من رفض نابوكوف وضع سيناريو لفيلم لوليتا المقترح، بل كررا عليه الطلب فقبل كتابة السيناريو فى المرة الثانية . ولكن سيناريو الفيلم كما كتبه نابوكوف يختلف كثيرا عن أحداث الرواية الأصلية . ولم ير نابوكوف فى هذا ما يدعوه الي الانزعاج حيث أن قبوله كتابة سيناريو الفيلم كان يرجع فى الأساس إلي نداء العائد

المالى من ورائه.

وعلى أية حال برع كوبريك فى إخرج فيلم لوليتا . وقام منتج الفيلم بإغراء نابوكوف بالمال حتى قبل فكرة ظهور بنت صغيرة حقيقية فى الفيلم .. ووقع اختيار المخرج على الفتاة سوليون التى كانت فى الرابعة عشرة عند بدء تصوير الفيلم وبلغت الخامسة عشرة عند الانتهاء من تصويره . ولكن أداءها كان أداء فتاة فى نحو السادسة عشرة من عمرها تجمع بين الجاذبية الجنسية، وبراءة الطفولة المتمثلة فى شيرلى تمبل . ولعب جيمس ماسور دور همبرت همبرت كما أن ستلّى ونترز لعبت دور شارلوت أم لوليتا . وبوجه عام يمكن القول بأن الطابع الكوميدى ساد أحداث الفيلم.

وفى عقد التسعينيات من القرن العشرين جاء من المشتغلين بصناعة السينما من يحاول تقديم معالجة سينمائية صادقة وأمينة لرواية لوليتا، وخاصة بعد اتساع دائرة السماح والإباحة فى السينما الامريكية . غير أن المشكلة بقيت فى التوزيع حيث إن الموزعين لم يستسيغوا توزيع فيلم يتناول معاشرة الأطفال . من ناحيته أخرج أدريان لين الفيلم على أنه مأساة ذات طابع رومانسى .

وسعى لين إلى إبراز المواقف التى قام الفيلم الأول بحذفها . وإذا كان الفيلم الأول قد ركز على الجانب الكوميدى من الرواية، فإن الفيلم الثانى ركز على الجانبين: المأساوى والرومانسى منها . ولكن هذا لا يعنى مطلقا أن المخرج الجديد أدريان لين استبعد تماما الجانب الكوميدى من الرواية .

وفى الختام لابد أن أذكر أن «لوليتا» أغرت الكثير من الباحثين الأكاديميين بدراستها وتحليلها والتعمق فيها ليس فى أمريكا وحدها بل فى الأقطار الأخرى . بل إنها أغرت كتابا من جنسيات مختلفة بمحاكاتها . ففى إيطاليا ظهرت رواية بعنوان «يوميات لوليتا» من تأليف بيابيرا تحكى الأحداث من وجهة نظر البنت الصغيرة، وليس من وجهة نظر العاشق لها . وهناك أيضا قصة «جرانيتا» التى ألفها امبرتو إيكو، والتى يروى أحداثها رجل يدعى امبرتو امبرتو، هذه القصة على عكس لوليتا تحكى لنا غرام الصغيرات للكبار، ولاشك أن نجاح نابوكوف الكاسح فى رواية «لوليتا» شجع مؤلفها على تناول موضوع الشذوذ الجنسى فى رواية «النار الشاحبة» ومعاشرة ذوى القربى ،

أو الجنس بين المحارم فى رواية «أدا» ، وقد علق أحد طلبة نابوكوف بقوله إن أستاذه كان يهوى الشابات وليس البنات الصغيرات.



رقم الإيداع
٢٠١٠/١٣٩٤٧
I.S.B.N
977-07-1414-3

أحدث إصـــدارات كتاب الهلال عامى ٢٠٠٩ - ٢٠١٠م

اسم الكتاب	المؤلف	الشهر	السنة
تراث المدن الإسلامية	د. خالد عزب	أغسطس	٢٠٠٩
التجديد والحفاظ على الهوية الإسلامية	د. جعفر عبدالسلام	سبتمبر	٢٠٠٩
الصهيونية تاريخها وأعمالها	حلمى النمنم	اكتوبر	٢٠٠٩
قد تكون الديانة تجسيداً للعقل	رجائى عطية	نوفمبر	٢٠٠٩
الحوار فى القران الكريم	د. محمد أبو ليلة	ديسمبر	٢٠٠٩
شخصيات ومواقف	د. وليد محمود عبدالناصر	يناير	٢٠١٠
كلام دبلوماسى	معصوم مرزوق	فبراير	٢٠١٠
هوس الوثيقة	د. مصطفى عبدالغنى	مارس	٢٠١٠
من أجل ثقافة علمية	د. نبيل حنفى محمود	أبريل	٢٠١٠
شمال نجد	د. صبرى محمد حسن	مايو	٢٠١٠
الأصول الإسلامية للعلمانية	د. وائل غالى	يونيو	٢٠١٠

هذا الكتاب

يدور هذا الكتاب حول الروائي الكبير فلاديمير نابوكوف (١٨٩٩ – ١٩٧٧) الذي ينتمي إلى عائلة روسية عريقة المحتد واسعة الثراء هاجرت بسبب قيام الثورة البلشفية . وقد أرسلته عائلته ليتلقى العلم فى جامعة كامبريدج العريقة حيث درس الأدبين الروسى والفرنسى .

أثارت كتابات نابوكوف الزوابع ضده وخاصة فى عام ١٩٥٩ عندما نشر روايته المعروفة لوليتا باللغة الإنجليزية فطغت شهرتها الآفاق . وكانت إباحيتها الصادمة السبب فى مصادرتها وتقديمها إلى المحاكمة بتهمة الإباحية ولم يشفع لها أسلوبها المتميز وجمال تعبيرها .

ولا يرجع فحش رواية لوليتا إلى فحش تفاصيلها بل إلى فحش فكرتها . فالرواية تدور حول رجل فى الأربعين من عمره يعشق فى جنون طفلة لا يزيد عمرها عن أربعة عشر عاما فيلجأ إلى حيلة جهنمية ويتزوج من أمها الأرملة حتى يتمكن من التقرب والتودد إلى ابنتها وينال منها مآربه.

روايات مصرية للجيب

شـــلال متدفِّق من الروايات



أكثـــر الروايات باللغ

إثارة ، وأحفلها بالمتع

تـــذوّق متـــعـــة الق

أحلى القصص ، وأجم

المؤسســـة العربيـــة الحديثـــة للطبـــع والنشـــر والتوزيـــع 10 ، 16 ش كامـــل صدقى الفجالـــة ،
4 ش الإسحاقى بمنشية البكرى روكسى مصر الجديدة - القاهرة - ت : 26823792 - 25928202 - 22586197
فاكـــس - 202/25966650 ج.م.ع ، 4 ش بدوى محـــرم بك - الإسكندريـــة ت : 03/4970840 - 03/4970850